

كتاب في حقوق الصغرى

قائد المعزدين بالله الفاطمي

تأليف

الدكتور على إبراهيم حسن

المفتش الأول للمواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي بالقاهرة

هذا الكتاب نال به المؤلف درجة ماجستير في التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

طبعة السعادة
١٢ ش. الجدى - القاهرة
ت: ٩٠٧٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

أناح لي قياسي بترتيب مواد التاريخ الإسلامي العام وتاريخ مصر
فيما قبل الفتح الفاطمي وفي العصر الفاطمي وفي عصر الأيوبيين والمماليك
كأستاذ للتاريخ الإسلامي في كلية دار العلوم وكليني الآداب بجامعة القاهرة
وبجامعة بغداد - إلى منابهة تحليل شخصية «جوهرة الصقلي»

تناولت حياة جوهرة الصقلي ، قائد المعز لدين الله الفاطمي ، بالبحث ، لما
لذلك القائد العظيم والفاخر الكبير من الأثر في تاريخ العالم الإسلامي عامة
وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذي فتح بلاد المغرب وفتح
مصر وأقام سلطان الفاطميين في الشرق .

وإن عصر جوهرة الصقلي لمن أهم عصور التاريخ المصري ، لذلك كان
جوهرة لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص ، وأحمد بن طولون ، ومحمد بن طنج
الإخشيد ، وصالح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم من مشهورى
أمراء مصر وحكامها .

لذلك استقصيت كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وآثاره ، واستطعت أن
أوضح الكثير من المسائل الفاضلة في هذه الناحية من نواحي تاريخ
مصر الإسلامية .

وقد عنيت بدرس كل ما كتب عن نشأة ذلك القائد وموطنه الأصلي ،
والدور السياسى الذى قام به فى تاريخ مصر : من ذلك تأسيس مدينة القاهرة
التي لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر
المذهب الفاطمي ، وفتح مصر والشام وفلسطين والحجاز ، وتوطيد دعائم
سلطان الفاطميين فيها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، وهزيمة افنسين
ومن حالقه من القرامطة .

محتويات الكتاب

صحيفة

تقدير الكتاب ٣

الباب الأول

جوهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جوهر قبل اتصاله بالمعز ٩

أصل جوهر ، ولادته ، بيته ، الحسين بن جوهر

جوهر منذ اتصاله بالمعز إلى أن فتح مصر ١٤

جوهر الصقلي ، جوهر الكاتب ، تقلد جوهر الوزارة في بلاد المغرب ،
فتوحه في بلاد المغرب ، منحه لقب القائد ، توليته إمرة الجيوش
لفتح مصر .

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

حالة مصر قبيل الفتح الفاطمي ١٨

مصر في عهد الإخشيد : ثروة مصر في عهده ، ضعف الخلافة العباسية
مصر في عهد كافور : أصل كافور ، قيامه بالوصاية على أنوجور وأبي
الحسن عليّ ابني الإخشيد ، ظهور الوحشة بينه وبين ولدي الإخشيد ،
استئثار كافور بالسلطة ، حالة مصر في أواخر أيامه ، حالة مصر
بعد وفاته

فتح مصر ٢٥

حملات الفاطميين الأولى على مصر ، حملة المعز على مصر ، صد كافور لها ،
المعز يعد العدة لفتح مصر ، تولية جوهر القيادة ، تقدير المعز لجوهر ،

صحيحة

توديع المعز له ، مسير الجيوش الفاطمية بقيادته ، وصول جوهر إلى برقة ، استيلاؤه على الأسكندرية ، مفاوضات الصلح بين جوهر والمصريين ، اضطراب أهل الفسطاط ، بيان جوهر للمصريين ، استيلاؤه على الفسطاط ، استئناف مفاوضات الصلح بينه وبين المصريين ، بيان جوهر الثاني ، تهنية المصريين جوهراً بالفتح ، دخول جوهر الفسطاط ، جوهر ونعمة الفتح .

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية ٣٩

استيلاء جعفر على الرملة ، استيلاؤه على طبرية ، مقابلته وفد دمشق ، استيلاء جعفر على دمشق ، قيام الأهليين بالثورة ، معاملة جند الفاطميين للأهالي ، جعفر وزعماء الثورة في سورية .

تهديد سلطان الفاطميين في سورية ٤٣

١ — القرامطة : سبب الحرب بين الفاطميين والقرامطة ، التحالف بين جعفر وأمير الرحبة الحمداني ضد القرامطة ، نشوب القتال بين الحسن وجعفر ، هزيمة جعفر .

٢ — أفتسكين : أصله ، استنجد أهل دمشق به ، دخوله دمشق ، اتحاده مع القرامطة لطرد الفاطميين ، إسناد قيادة الجيوش الفاطمية في الشام إلى جوهر .

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر ٤٨

حملة القرامطة الأولى على مصر : مسير القرامطة إلى الرملة ، وصولهم إلى القلزم ، وصولهم إلى الفرما ، اعتراف مدينة تنيس بسلاطنتهم ، القرامطة في عين شمس ، تهديدهم القاهرة ، استعداد جوهر لقتالهم ، رجوعهم إلى القلزم ، قضاء جوهر عليهم ، موقف الإخشيديين .

مكتبة

حملة القرامطة الثانية على مصر : كتاب المعز إلى الحسن زعيم القرامطة ،
رد الحسن ، استعداد المعز للقتال ، القرامطة وجلاؤهم عن مصر .
الدعوة الفاطمية في مصر ٥٣

(أ) قبل الفتح :

العوامل التي دعت الفاطميين إلى اختيار مصر مقراً للدعوة الشيعية
بدلاً من بلاد المغرب ، الحملات الفاطمية وأثرها في نشر المذهب
الفاطمي في مصر ، انتشار الدعوة الفاطمية في مصر في عهد الإخشيد ،
استقبال كافور دعاة الفاطميين .

(ب) بعد الفتح :

جوهر وإقامة الخطبة للمعز : الدعوة الفاطمية في المساجد : في جامع
عمرو ، في جامع ابن طولون ، في الجامع الأزهر ، التحاليم الفاطمية في
القصر الفاطمي ، داعي الدعاة .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر ٦٣
سياسة جوهر العامة في مصر : قصر مناصب الدولة على المتشيعين ،
إقصاء جوهر السنين عن المناصب تدريجياً ، جباية الخراج ، الوزارة ،
القضاء ، الحسبة ، موقف جوهر إزاء سلوك المغاربة .

الباب الرابع منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة ٧٤
العواصم الإسلامية في مصر قبل القاهرة : الفسطاط ، المعسكر ،
القطائع . سبب إنشاء القاهرة ، تسميتها ، موقعها ، سورها ، ظاهرها ،
القصر المعزى ، أبواب القصر ، قصر العزيز ، بين القصرين ، أبواب
القاهرة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفتوح ، حالة مصر العامة في
عهد جوهر

٩١ بناء الجامع الأزهر
المساجد الجامعة في مصر قبل الأزهر : جامع عمرو بن العاص ، جامع
العسكر ، جامع ابن طولون .
سبب بناء الجامع الأزهر ، تسميته ، وصف الجامع الأزهر : مقصورة
جوه ، مقصورة الأمير عبد الرحمن كتنخدا ، أعمدة المقصورتين ،
صحن الجامع الأزهر ، محراب جوه ، محاريب الجامع الأزهر ، منبر
الأزهر ، تحويل الأزهر إلى جامعة في عهد العزيز .

الباب الخامس

حياة جوه في مصر بعد قدوم المعز إليها

٩٨ قدوم المعز إلى مصر
خروج المعز من المنصورة ، استخلافه بالكنين على إفريقية ، وصوله
إلى برقة ، دخوله الأسكندرية ، استقباله ، خطبته ، وصول المعز
إلى الجيزة ، استقبال جوه له ، وصوله إلى القاهرة ، دخوله القصر ،
استقباله الأشراف والقضاة والعلماء ، هديتا جوه وأبي جعفر مسلم
المعز ، صلاته في مصلى القاهرة ، هديتا المعز لجوه ، صرف جوه
عن ولاية الأعمال العامة في مصر ، إسناد الأعمال إلى يعقوب بن كلس
وهسلوج بن الحسن ، سبب صرف جوه .

١٠٤ تثبيت سلطان الفاطميين في سورية
خروج جوه إلى سورية ، احتلاله الرملة ، ولاء أهل دمشق
لأفتككين ، نزول جوه بظاهر دمشق ، الحرب بينه وبين أفتككين ،
هزيمة أفتككين ، مسير جوه إلى الرملة ، تعريجه على عسقلان ،
محاصرة القرامطة وأفتككين لعسقلان ، المفاوضات بين جوه
وأفتككين بشأن الصلح ، مرور جوه تحت سيف أفتككين وريح
الحسن ، عودة جوه إلى مصر ، خروج العزيز مع جوه إلى الشام ،

صغيرة

طلب العزيز المهادنة من أفتكين ، رفض أفتكين ، الحرب بين القرامطة وأفتكين وبين العزيز ، هزيمة الحسن القرمطي وفراره ، فرار أفتكين والقبض عليه ، أفتكين في مصر ، عفو العزيز عن أفتكين وأثر جواهر في ذلك ، إكرام العزيز لأفتكين ، وفاة أفتكين

١١٣

تقدير جواهر

الباب السادس

دولة الفاطميين التي أقامها جواهر الصقلي في مصر

- ١ — خلفاء العصر الفاطمي الأول ٣٦٢ — ٤٨٧ هـ ١١٩
- ٢ — خلفاء العصر الفاطمي الثاني ٤٨٧ — ٥٦٧ هـ ١٢٧
- ٣ — تقلص سلطان الفاطميين ١٢٩
- ٤ — سقوط الفاطميين ٥٦٧ هـ ١٣٢
- ٥ — تقدير الفاطميين ١٣٦
- مصادر الكتاب ١٥٢ — ١٣٩

الصور والخرائط

- ١ — خريطة اتساع الدولة الفاطمية ١٩
- ٢ — جامع عمرو بن العاص ٥٩
- ٣ — جامع أحمد بن طواون ٦١
- ٤ — خريطة القاهرة في عهد الفاطميين ٨٠
- ٥ — خريطة لإتساع مدينة القاهرة ٨١
- ٦ — الجامع الأزهر ٩٢
- ٧ — بعض عقود الجامع الأزهر — وهي من عهد إنشائه . . . ١٢١
- ٨ — منارة جامع الحاكم ١٢٣
- ٩ — جامع الأقمر — الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي . . . ١٢٧
- ١٠ — خريطة الدولة الفاطمية ١٢٩

الباب الأول

جواهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جواهر قبل اتصاله بالمعزة:

إن للبيئة التي يذشأ فيها الشخص ويتعرع تأثيراً كبيراً في أعماله ،
وبدراستها يسهل الحكم على حياة الرجل مما يحيط به من المؤثرات ، لذلك يجب
أن نتكلم على جزيرة صقلية ، ، موطن جواهر الأصلي .

ولد جواهر بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتبار
مولده رومي الأصل^(١) ؛ وكان العرب يطلقون على أهالي الدولة الرومانية
(الشرقية والغربية) اسم الروم .

وقد ظلت صقلية^(٢) ، موطن جواهر الأصلي ، تحت حكم الرومان حتى

(١) ذكر المقرئى (الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) أن جواهر د مملوك رومي رباه
المعز لدين الله . كذلك أطلق عليه ستانلى لين بول (The Story of Cairo p 117)
اسم « العبد الرومى »

(٢) صقلية : بثلاث كسرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والبعض
يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام . وهى من جزائر البحر
الابيض المتوسط ، بينهما وبين افريقية مائة وأربعون ميلاً . وهى جزيرة خصبة
كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها
جبل النار الذى يزعم الروم أن كثيراً من الحكام الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة
لمشاهدة عجائبه واجتماع النار والشلج فيه ، وقيل لأنه كان فى هذا الجبل معدن الذهب ،
وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو ، ومن أكبر مدنها
الخالصة . ياقوت معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ - ٣٧٦ .

فتحها الاغلبية^(١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قاضى القيروان ، وذلك فى عهد المأمون . ويحدثنا ياقوت^(٢) أن أسداً فتح هذه الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية القضاة لأمرة الجند مألوفة عند المسلمين ؛ فطالما قادوا الجيوش وفتحوا كثيراً من البلاد ، وخرجوا فى الغزوات ما بين شامية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت فى عداء مستمر مع المسلمين بحكم الجوار فقد ولى القاضى يحيى بن أكرم قيادة الجند فى عهد المأمون لقتال البيزنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنوا بها كثيراً من المساجد ودور العلم . وكان للرحالة من المسلمين معرفة تامة بجزيرة صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها فى كتابه « تاريخ صقلية » وصفاً دقيقاً مسمياً ، فتسكلم هن جبالها وبراكينها ومضايقها ومعادنها وثمارها وفواكهها ، وما بها من الأبقية والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذى رآها سنة ٣٦٢ هـ ، وهى السنة التى وصل فيها المعز لدين الله الفاطمى إلى القاهرة وانخذها حاضرة لدولته ، وكتب عنها كتاباً سماه « محاسن أهل صقلية » وذكر من بين مدنها الكبيرة بلرم والخاصة ، كما قال أن عدد ماشيده المسلمون فيها من المساجد يزيد على الثلاثمائة . ومن ذلك نقف على مدى انتشار الإسلام فى هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسى المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذى شاهد كثيراً من ممالك العالم

(١) أسس هذه الدولة إبراهيم بن الأغلب الذى أقطعه هارون الرشيد شمال افريقية فى سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فوليا هو وأولاده من بعده إلى سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) .

Stanley Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٤

المختلفة. (١) وقد أهدى لروجر الثاني ملك صقلية كرة أرضية من الفضة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية في تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الإسلامى مرعى خصيباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة في تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد ، وترجمت في هذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربى بين أهلها ، وبخاصة المعلقات السبع (٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه روجر الزماندى عن العرب من المثل العليا للفروسية أثر كبير في ارتفاع شأن أسرته . أضف إلى ذلك ما أخذه عنهم من النظام الإدارى واستعانتته بالموظفين المسلمين في إدارة شئون دولته (٣) .

ويعتبر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية في هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوروبا من حيث الحصار والمدينة . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية في هذه البلاد ، حتى كان الملوك من الزماندين يجيدون التسكيم بها . وقد أفسحت اللغات الإغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية

(١) كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأماصار والأقطار والبلدان (رومة سنة ١٥٩٢)

ذكر المقرئى أن جميع البلاد التى ذكرها الإدريسي كانت مكتوبة على ستور حريرية بالقصر الفاطمى في القاهرة . الخطط ج ١ ص ٤١٥

(٢) كان هند العرب في الجاهلية أسواق الأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد العصماء أمام المحكمين من شعراء العرب . فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بماء الذهب وتعلق على جدران السكينة تسكريماً لأصحابها وإشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة ، وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الإسلام سبعاً .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفتح النرماندى قد عبر الطريق للمهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للنرماندين (١) .

وكان من الطبيعي أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية في نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكاً بأهدابه ، مثقفاً تنقيفاً عالياً بفضل انتشار اللغتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة في هذه البلاد ، ويأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد هذه لغات : منها الإغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالآداب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير (٢) . ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية .

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء عن بيت جوهر وعن أبيه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرباه ، ولا عن كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما هي أخبار مبشرة لا تمثل لنا حياة هذه الأسرة التي نشأ بها جوهر تمثيلاً صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السنة التي ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى القسطنطينية ، بعد مقابلاته له ومفاوضته إياه بشأن

(١) Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam
Sicily, S . V.

(٢) Stanley Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 116

الصلح سنة ٣٥٨ هـ . عن سنن جوهر فقال : د نيف وخمسون سنة^(١) . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سنتي ٣٠٥ هـ ، ٣٠٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقرئ من أن جوهر ا قد توفي سنة ٣٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لسكانت ولادة جوهر بين سنتي ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ^(٢) . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقرئ أن جوهر ا قال لابن عمار في سنة ٣٨١ هـ ، وهي السنة التي مات فيها جوهر ، لقد د نيفت على الثمانين ،^(٣) . والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقرئيا لسن جوهر من أبي جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً عما إذا كان جوهر قد ولد مسلماً أو أسلم بعد ولادته . والذي يغلب على الظن أنه ولد مسلماً . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمعز بأكثر من قرن . أضف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبد الله ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبد الله هذا قد بادر إلى الإسلام الذي كان منتشراً في هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهر ا قد شب على دين أبيه أما أجداده فلم ينقل لنا التاريخ شيئاً عن إسلامهم ؛ وكل ما ذكره عن سلسلة نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبد الله . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقلما يهتدى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أضف إلى ذلك أن هذا النسب كثيراً ما يكون عرضة للغموض والإبهام .

(١) المقرئ : اتعاط الحنفاء ص ٧١

(٢) الخطط ج ١ ص ٣٨٠

(٣) أحد قواد المغاربة

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي هبة الله . وكان ذا مواهب
فذة ومقدرة حربية فائقة كما كان أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه « بالقائد
ابن القائد » (١) .

جوهري من اتصاله بالمعز إلى أنه قنص مصر :

شب جوهر في حبر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المعز .
ويحدثنا المقرئ (٢) أن المعز قد اختص جوهرأ من بين مواليه وكناه بأبي
الحسين . وقد قر به الخليفة الفاطمي لما توسمه فيه من الاخلاص للدين والمواهب
الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهر الصقلي » نسبة إلى موطنه الأصلي
« صقلية » ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضموا تحت لواء
الفاطميين وحاربوا في صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم في بلاد المغرب سنة
٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقلية » في كثير من المصادر التي يعتمد
عليها في تاريخ الفاطميين . وقد شاع إطلاق لفظ الصقلية على سكان جزيرة
صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن الصقلية من الجنس السلافي ، ومنه
الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالي البلاد المحيطة بالبحر الأسود .
وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هي « الصقليين » لا
« الصقلية » .

ظل جوهر يتدرج في سلك المناصب ببلاد المغرب حتى انخذه المعز في
سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .

(١) المقرئ : الخطط ج ٢ ص ١٤

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٢

ولا بد أن يكون المعز قد خبر جوهرًا وعرف ما امتاز به من الصفات والمزايا قبل أن يلبى الخلافة بزمن طويل ، إذ يعد كل البعد أن يطفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذه المعز كاتباً له سنة ٣٤١ هـ وهي السنة التي ولي فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة إحدى المناصب العالية التي كان الخلفاء لا يسندونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقدرة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فرقاه إلى منصب الوزارة سنة ٣٤٧ هـ . ولا خرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جم الأدب في كتابته . يتبين ذلك في عهد الصالح الذي كتب له المصريين ، ذلك العهد الذي سنأق على ذكره في الباب التالي . وقد كان لهذه الصفات أبعاد الأثر في تهدئة خواطر المصريين وتأليف قلوبهم عقب الفتح الفاطمي .

ويحدثنا ابن خلدون^(١) أن المعز بعث جوهرًا (صفر سنة ٣٤٧ هـ) ، لفتح ما بقي من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يضم كثيراً من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيري بن مناد الهنستماجي الذي استخلف المعز ابنه بلسكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر في سنة ٣٦٢ هـ . سار جوهر إلى تاهرت^(٢) فاستولى عليها ، ثم استأنف السير إلى مدينة فاس فناجز

(١) ج ٢ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيمرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الشيعي سنة ٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق عامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلمون عليه بالخلافة .

أهلها مدة ، ثم تركها لاستعصائها عليه . ثم يمم سبجلماسة^(١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر بالله وخاطبه الناس بأمير المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأسره . ثم أومن جوهر السير في بلاد المغرب الأقصى ، يفتتح مدينة تلو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي^(٢) . وقد أراد أن يبرهن المعز إلى أي حد وصلت جيوشه في فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك في قلال من الماء وبعثه إلى المعز « وأعلمه أنه قد استولى على مامر به من المدائن والأمم وسلك ما هنالك من البلاد فافتتحها »^(٣) .

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستعصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وعالج فتحها من جديد ، وقد تم له ما أراد ، ففتحها عنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سبجلماسة ، ثم وضعهما في قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المعز وهو في المهديّة .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التي بدأها أبو عبد الله الشيباني سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المعز أهالي هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المعز ، فاختره لقيادة الحملة التي أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

(١) سبجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجرى فيها نهران أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة تشعبا إلى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، وتبعد عن القيروان بسنة وأربعين فرسخا . وكان بناؤها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتخذها بنو مدرار حاضرة ملكهم (البكري ص ١٤٨ - ١٤٩)

(٢) المقرئى : الخطاط ج ١ ص ٣٥٢

(٣) المقرئى : نفس المصدر والجزء ص ٣٧٨

وقد ذكر ابن خلكان^(١) أن جوهرأ مرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . فحزن المعز وعاده بنفسه في بيته ، وهو شرف لا ينال إلا المقربون . وكان نفس المعز كانت تحدثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المعز ، فشفي جوهر من مرضه ، وسرعان ما أعدت معدات الحملة وخرج المعز لوداعه ، وهو ما سنفصله بعد .

(١) ج ١ ص ١١٩ .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 99

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

من مصر قبيل الفتح الفاطمي:

كانت مصر قبيل الفتح الفاطمي تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٣٢٣ هـ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٣٥٨ هـ حيث فتحها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٣٢٣ هـ . وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والرخاء شاملاً ، والبلاد لاتزال قوية بجندھا الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تبعية اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف في وجهه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدي . وقد زاد كل ذلك في قوة الإخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التي أغارت على هذه البلاد في عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وقد كانت الصلة بين الإخشيد والخليفة العباسي على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم^(١) . وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة إلى أن جاء ابن رائق لهرف الإخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لانهجب إذا ثارت فتوة الإخشيد ، فكتب إلى نائبه في بغداد لاستطلاع رأي الخليفة الذي لم

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٢٧١

محفل به ولم يرد عليه بشيء . وكان من أثر ذلك أن أمر الإخشيد بإلغاء الخطبة للخليفة العباسي وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمي محله . وهذا العمل — كما سنرى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت في أواخر أيام الإخشيد إلى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة في بغداد بين توزون والبريدى اللذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أفوى ولانه في ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقبه الإخشيد في مدينة الرقة^(١) وعرض عليه البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذي تعهد بحماية الخليفة ، فعاد الخليفة إلى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرع لعهده حرمة ؛ فقد سمل عين الخليفة وحبسَه ثم قتله^(٢) . وجاء بعد ذلك بنو بويه لنصرة الخليفة العباسي الذي لم يلبث أن أصبح العوبة في أيديهم .

مات الإخشيد في فلسطين في شهر ذي القعدة سنة ٣٣٤ هـ ودفن في بيت المقدس ، فخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور^(٣) وهو في الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصبياً مملوكاً لأحد أهالي مصر ، فاشتراه منه محمد بن طنج مؤسس الدولة الإخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد . وقد ذكر السيوطي^(٤) أن الإخشيد اشترى كافوراً بثمانية عشر ديناراً ؛ وذكر

(١) بلدة واقعة بين العراق والشام .

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود هلى ما ذكره ابن خلكان (١ ص

٥٤٥) والسيوطى (ج ٢ ص ٣٧٣)

(٤) حسن المحاضرة (ج ٢ ص ٣٧٣) ، وابن خلكان (ج ١ ص ٤٣١) وأبو

المحاسن (ج ٢ ص ٣١٥)

المقريري^(١) أنه أرسل بهدية لمحمد بن طنج ، فتوسم فيه الدكاه وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الإخشيد ترقى كافور في بلاطه ، فاخصه الإخشيد من بين عبيده ومنحه ثقتة حتى جعله أنابك^(٢) ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن على . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى في كافور النجاة والهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طنج إلا هذا العبد .

ولما توفى الإخشيد وخلفه ابنه أبو القاسم أنوجور قبض كافور على زمام الأمور في كاتبة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهى مصر والشام والحجاز وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التى قام بها المصريون فى وجهه . أضف إلى ذلك ما أصابه من الفوز فى طرد أبى الحسن على الملقب بسيف الدولة الحداني من دمشق ، والحيلولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذى دلت عليه هذه الغنائم التى استولى عليها المصريون فى هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ؛ فخاطبه عليه القوم « بالآستاذ » ، ودعى له على المنابر فى مصر والشام والحجاز^(٣) باسم أبى المسك^(٤) كافور ، تلك التسمية التى كناه بها الخليفة العباسى . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والهبات ، كما انبسطت يده فى كافة شئون البلاد^(٥) .

(١) الخطاط ج ٢ ص ٢٦

(٢) أنا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أى أبو الأمير أو مربى الأمير

(٣) ذكر المقريري (الخط : ج ٢ ص ٢٦) أن أهالى القسطنطينية والرملة وطبرية

لم يدعوا للإخشيد قبل . ٣٤ هـ .

(٤) أطلقت هذه التسمية عليه من قبيل التلميح والمشاكلة ، لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الدعابة فى إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 101.

(٥)

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين أنوجور ، وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . وانقسم الجند فريقين : الإخشيدية والكافورية . ومات أنوجور في ذى القعدة سنة ٣٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته بالسم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد وهو في الثالثة والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالامر دونه وعين له — كما عين لأخيه من قبله — أربعمائة ألف دينار في كل سنة^(١) ومنع الناس من الدخول إليه . ويحدثنا المقرئ أن أبا الحسن اعتل بعلة أخيه ، وأنه مات كذا الحرمانه من سلطانه الشرعية (المحرم سنة ٣٥٥ هـ) . وقد حال كافور بعد وفاة أبي الحسن دون تعيين ابنه احمد ، بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير مدة أيام . وفي المحرم من سنة ٣٥٥ هـ أخرج كافور كتابا من الخليفة المطيع العباسي بتقليده ولاية مصر والبلاد التي تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودعى له بمعد الخليفة على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بعد الخليفة والوالى^(٢) .

ولم يكف كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٣٥٥ هـ حتى ارسل المعز الفاطمي جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ، جهز كافور جيشاً طردهم وقتل منهم عددا كبيرا . على أن كافورا قد أحسن استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه في بلاطه من قبل المعز يدعونه إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي الكثيرون من السكتاب والجنود الإخشيدية والكافورية .

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣١٥

(٢) المقرئ : ج ص ٢٦ — ٢٧

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختتمت في نفوس المصريين . ولا شك في أن الحالة السيئة التي سادت هذه البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الإخشيديين عن هذه البلاد . فقد انتاب مصر البؤس والغلاء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذي بدأ في سنة ٣٥١ هـ ، وما تبعه من انتشار القحط وتفشي الوباء . فاشتد الغلاء وندر القمح ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعن مواريثهم ، حتى قيل إنه كان يلقي بجثث الموتى في النيل لكثرة ما (١) . وقد ذكر ابن خلدون أن هدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين اغاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ (سنة ٩٦٣ م) ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة (سنة ٣٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التي أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى اخميم ، وما كان من اضطراب الحكومة وعجز كافور عن دفع رواتب حرسه وغلبائه (٢) فتسكروا له وثاروا عليه (٣) .

توفي كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو في الستين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن في دمشق (٤) . وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب . وكان المذهب الفاطمي في هذه البلاد قد بدأ ينمو ويتراد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الإخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

(١) المقرئى : الخطاط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقرئى أن هدد هؤلاء الغلبان بلغ ألفاً وسبعمائة

(٣) G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P. 31

Lane-Poole : The story of Cairo p. 103

(٤)

وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والانحلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وانتقضت أطرافها ، واقتطعت منها دويلاتها ، وثار عليها ولانها ، وكثرت الاغارة عليها من أعدائها ؛ وغدا الخليفة العباسي أشبه شيء بالعبودية في أيدي بني بويه (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الغالين الذين استنجد بهم الخليفة لما وئته وتخليفه من ظلم الأمراء . ولاهرو فإن سلطة الخليفة العباسي قد اضمحلت في ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا في الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهلين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ما حدا بسلاطين بني بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن نفوذهم مستمد من الخليفة (١) .

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شيء . فلما مات كيافور اجتمع رجال البلاط في مصر وولوا أبا الفوارس أحمد حفيد الإخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من العمر (٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو محمد الحسن ابن عبيد الله أخى الإخشيد فارا من وجه القرامطة ، فأمره المهريون على الجيش . فاستبد بالأم وقبض على الوزير جعفر بن الفرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام (٣) . وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن ابن عبيد الله إلى الشام سنة ٣٥٨ هـ ، نحو من خمسة أشهر تحت إدارة ابن الفرات ، وصلت في أثنائها إلى حالة من الفوضى عجز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن في نصابه وتخفيف ما حل بالأهلين من المصائب والويلات (٤) .

Gibbou: Decline And Fall of the Roman Empire, VI. p. p. 54—55 (١)

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥ و ٦٥

Lane—Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 89—90

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر ، وعجز
العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام الممصر
الفاطمي لفتح مصر ، ذلك الأمر الذي تم على يد جوهر القائد وهو ماسنيدته
في الفصل التالي .

فتح مصر :

عن الفاطميون عناية خاصة بغزو مصر ، لأن ذلك يزيد في رقعة أملاكهم
ولأن استيلائهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التي كانت
خاضعة لسلطان الأخشيديين وهي الشام والحجاز . ولا غرو فان موقع مصر
الجغرافي بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض
الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في
الشرق . لهذا لا نعجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدي يدأبون
على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل
عبيد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات
لغزو مصر : الأولى في سنة ٣٠١ هـ ، والثانية في سنة ٣٠٧ هـ ، ولم تنته إلا في
سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الحملة الثالثة في سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد
القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث في الاستيلاء
على مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت في ذلك الوقت من
القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر في المسدة الباقية من خلافة
القائم (٣٢٢ — ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ) . لأن
العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان في استطاعتهم الدفاع عن مصر
ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب قد
حالت دون تحقيق الغرض الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو فتح مصر .
(٢ — جوهر)

وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثر ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد ،
الذى قام بفتنة اشتد وقعها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت
بيوت مالها خلواً من الصفراء والبيضاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المعز رابع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ -
٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى
الواحات . ولسكن كافوراً الإخشيدى صده وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المعز عن تنفيذ ما عزم عليه من فتح هذه البلاد .
وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد
ثورة أبي يزيد . ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى في مصر على أثر وفاة
كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ،
أضف إلى ذلك عطف المنتسبين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المعز
يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد لعب يعقوب بن كاس^(١) دوراً هاماً في توجيه نظر المعز إلى حالة
الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور .

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد في بغداد وصحب أباه وهو في صباه إلى الشام . ثم
جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة في يده في عهد
أنوجور وأبي الحسن على ابني الإخشيد فأحله كافور من نفسه محل العطف والرعاية
لما آتته فيه من الهمة والنشاط والأمانة ، فعينه في ديوانه الخاص . ولم تزل
حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة ، وقد أسلم في شهر شعبان سنة
٣٥٦ هـ فزادت حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن الفرات ،
فحبسه ابن الفرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجالات
الدولة في الأمر وبعد أن بذل له ابن كاس الأموال . على أن ابن كاس لم يأمن على
نفسه البقاء مع هذا الوزير . فسار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمعز ودله
على وجوه ضعف مصر وحشده على النوض بغزوها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل
ابن كاس في بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المعز .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق ببلاد المغرب منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) . فقد أمر المعز بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر ، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة ، وجمع الأموال للقيام بنهقات هذه الحرب .

ولا غرو فقد كان المعز شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق . فلم يأل جهداً في إعداد جيش كثيف وتزويده بالعدد ، حتى قيل إن عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أغدق عليهم المعز الأرزاق والعطايا حتى بلغت هذه الأموال — على ما ذهب إليه المقرئى — أربعة وعشرين مليون دينار .

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من الخطبة التى ألقاها المعز على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول : « ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وهقولكم . واعلموا أنكم إذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم . » (١)

وقد رأى المعز فى جوهر الرجل الذى يعتمد عليه فى القيام بأعباء هذه الحملة . ولا غرو فقد كان جوهر من الرجال الأفذاذ الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية . فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمعز ، بفضل ما أظهره جوهر من المهارة الحربية ، وكان لجوهر أثر فى نشر هذا السلطان . فلما آن أوان فتح مصر جعله المعز على رأس الجيوش التى أعدها لغزوها . وعما يدل على مبلغ ثقة المعز به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة (٢) لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر : والله لو خرج

(١) المقرئى : انعاظ الخنفاص ٦٠ - ٦١

(٢) رقادة: تبعد عن القيروان بأربعة أميال ، وقد وصفها أبو عبيد الله البكرى :

جواهر وحده لفتح مصر ، ولیدخلان إلى مصر بالأردية من غير حرب ،
وليزان في خرابات ابن طولون ویبنى مدينة تقهر الدنيا ، . ونقف من عبارة
المعز على ثلاثة أمور :

الأول : غلو المعز في مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر
وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش
الكثيفة . وقد كان لشقة المعز بجواهر الأثر الكبير في نفسه مما جعله يتفانى
في القتال لیکون عند ظن الخليفة به .

الثاني : وقوف المعز وقوفاً تاماً على أحوال مصر وعجزها عن صد
الجيوش الفاطمية .

الثالث : أن المعز كان يرمى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين في موضع
خرائب القطائع التي أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه
الديني والسياسي على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة
بهذا الاسم « القاهرة » كان في نفس المعز قبل تأسيسها على يد جواهر ، مما

= في كتابه : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، (ص ٢٧) فقال : إنه بكثرة
البياتين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أعدل ولا أطيب تربة منها .
وقيل أن أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طبيبه بالخروج إلى
موضع رقادة . فنام فيه نوماً هادئاً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة »
واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثاني (٣٦١ - ٣٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) .
ومن ثم أخذت في العمران وكثرت فيها المساجد والقصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً
من وجهه أبي عبد الله الشيعي ، فسكنها عبيد الله المهدي إلى أن اتخذ مدينة المهدي حاضرة
لملكه واقتل لإيها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة في الخراب شيئاً فشيئاً حتى
أصبحت أثراً بعد عين .

يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور
القاهرة ، الذي اشتق منه اسم هذه الحاضرة . ولم تقتصر ثقة المعز بجوهر
عنده ذا الحد . فقد ذكر لنا ابن خلكان أن الخليفة الفاطمي أمر أولاده
ورجال دولته بالترجل بين يدي جوهر هند ذهابهم لوداعه حين خروجه
على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر ، كما أمر المعز صاحب برقة بالترجل
لجوهر عند لقائه وتقبيل يده . وقد كبر ذلك على الوالي وبذل مائة ألف
دينار على أن يعفى من ذلك ، واسكنه لم يظفر بشيء . وبعد أن قبل جوهر
يد الخليفة وحافه فرسه أذن له بالمسير . ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر
كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه ^(١) .

خرج جوهر من القيروان ^(٢) في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة
٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) ، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال
على الجمال ، وجند يربو عدده على مائة ألف ^(٣) ، وخيل يزيد عددها على عدد
الجند بكثير . ويحدثنا ابن زولاق أن أبا جعفر مسلم العلوي الذي تم الصلح
بين المصريين والفاطميين على يده ، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار
عسكر جوهر فقال : مثل جميع عرفات كثيرة وعدة ^(٤) . وقد وصف ابن
هانيء الأندلسي شاعر المعز هذا الجيش في قصيدة طويلة قال في مطلعها :

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٥ ، المقرئ : الخط ج ١ ص ٣٧٨ .

(٢) القيروان : أكبر مدائن بلاد المغرب ، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة
رقادة ، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الغناء ومبانيها الفخمة (البكري : كتاب المغرب
في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ٢٢ — ٢٧)

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

(٤) المقرئ : اتعاظ الخلفاء ص ٧١

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد رايتني يوم الحشر أروع
غداة كأن الأفق قد سده بمثله فما د غروب الشمس من حيث تطلع (١)

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التحية على النحو الذى أمره به
المعز . ثم استأنف جوهر المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير
مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التعرض للأهلين (٢)

من هذا نرى أن جوهرأ كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف
بها قلوب المصريين . فقد حال دون ماعساه ينجم من الشغب وأعمال السلب
والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إخداقه
العطايا والأرزاق على جنوده بما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا
يفسر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل القسطنطين حين علموا باستيلاء جوهر على
الإسكندرية . فعقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار الدولة
للنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ،
وندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطالب
الأمان على أرواحهم وأموالهم . فأجاب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو
من الأشراف العلويين ومن ذوى المكانة عند المصريين . فقبل أبو جعفر
القيام بهذه المهمة ، واستصحب معه جماعة من ذوى الرأى والنفوذ
فى البلاد . (٣)

وكان إسناد رياسة هذا الوفد إلى أبى جعفر من الأمور التى دلت على

(١) ديوان ابن هانئ الأندلسى ص ١٠٦ — ١١٢

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

(٣) السكندى ص ٦٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

حكمة ابن الفرات وبعد نظره ، فقد كان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبباً في إجابة مطالب المصريين . وقد تجلّى ذلك في هذه الوثيقة التي اشتملت على شروط الصلح . وقد توجه هذا الوفد في يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيعة جمع كبير من الأهالي (١) .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر في مدينة تروجه (٢)، فقبل جوهر ما عرضوه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطميين ، ذلك الصلح الذي أودعه جوهر في هذه الوثيقة التاريخية التي نقلها عن المقرئ فيما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه لجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سألتوه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطلال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرضى أيداه الله وأبو الطيب الهاشمي أيداه الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله والقاضي أعزه الله ، وذكروا عنكم أنكم التستم كتاباً يشتمل على أمانتكم في أنفسكم وأموالكم وبلاذكم وجميع أحوالكم ، فعرفتكم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدوا الله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدابوا فيما يلزمكم وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم العايدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ؛ وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن لإخراجه للمساكر المنهورة والجيش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجماد عنكم

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٦

(٢) بلدة قريبة من الاسكندرية

إذ قد تخطفتكم الأبدى واستطال عليكم المستذل والممتعة نفسه بالاقتدار على بلدكم في هذه السنة والتغلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فله في غيركم من أهل بلدان المشرق وتأكده وزمه واشتد كلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبإفاد الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين همهم الخزي وشملتهم المذلة واكتنفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضجيجهم وعلا صراخهم ، فلم يغتهم إلا من أرمضه أمرهم وأمضه حالهم وأبكى عينيه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عوده وأرجاه عليه استنقاذ من أصبح منهم في ذل مقيم وعذاب أليم . أن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وأثر إقامة الحج الذي تعطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم . وإذ لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث العابثين فيها ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفظوا بالأطعمة والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه انقطاع طرقاتها لخوف مارتها إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها إلى العيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة وقطع الغش منها ، إذ كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها وما أعز به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفي الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان

وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقار الأحوال وحياطة أهل
البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم
إلا على ما لم شعهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم والف كلتهم
على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به
مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها
عليكم ، وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبیت المال من غير وصية من
المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبیت المال . وإن اتقدم في رم مساجدكم
وتزيينها بالفرش والإيقاد وأن أعطى مؤذنها وقومتها ومن يؤم الناس فيها
أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بیت المال لا بإحالة
على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولاه وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله
عليه بما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً التسم
ذكرها في كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم تطميناً لأنفسكم . فلم يكن
لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة
وهي إقامةكم على مذهبكم وأن تقرکوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض في
العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف
الامة من الصحابة رضی الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت
الأحكام بمذاهبهم وفنواهم ؛ وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان
وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونهيه نبيه
صلى الله عليه في سنته وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولستم على أمان
الله التام العام الدائم المتصل الشامل السكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور
الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم
وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن
ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تسانون وتحفظون وتحرسون ويدب

عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قوكم فضلاً عن ضعفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصريحون بها وتعلنون بالانصراف إليهما وتخرجون إلى وتسلمون على وتكونون بين يدي إلى أن أهبّر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتساارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ، (١) .

هذا هو نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه وكتبه بيده في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفي هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكيناً لأواصر المودة بينه وبين رجالات مهر خاصة وتأليفاً لقلوب المصريين عامة .

وهذه سياسة رشيدة من جانب جوهر ، تنطوي على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . ونحن نعلم ما المآدب من الأثر في حل المعضلات السياسية والدينية . ونلاحظ في هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول : تعهد جوهر بنشر العدل وبث الطمأنينة في النفوس . وذلك بحماية مهر ضد هجمات المغيرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التي كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ،

وكان من الطبيعي أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التي كان يهددها خطر القرامطة . ولا شك أن حالة الضعف التي وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، وما نزل بها من وباء وما أصابها من قحط من جراء انخفاض النيل — كل ذلك قد أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد . ولم يحل جوهر هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الوتر الحساس ، وهو حماية الأهالي من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثاني : ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها للصلاة والنظر في أمورهم . على أنما نرى جوهر لم يغفل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحقيتهم في الخلافة ومعنى ذلك تمهيد السبيل لفكر المذهب الشيعي مذهب الفاطميين .

الثالث : قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعسى أن يتطرق إليها من الغش والزيف ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التي يعنى بها كل فاتح مصلح .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى القسطنطينية يحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالي فلم يقبلوه . وصمم الإخشيديون وجماعة كافور والجند على مواصلة قتال الفاطميين ، وعهدوا إلى « نحرير » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجيزة وأخذ يستعد لملاقاة العدو (١) .

وفي الحادي عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجيزة وسار إلى منية الهيادين ، ثم استولى على المخاضة بمنية شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ، فلاحق به جعفر بن فلاح (الذي تولى فتح الشام فيما بعد)

(١) ابن خلدون ج ١ ص ١٤٩ . ويحيى بن سعيد ص ١٣٢ و ١٣٣

فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليسكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أرادك المعز ا فخلع جعفر ثيابه وعبى النهر مرتديا سراويله ، فنبهه المغاربة (١).

لقى الإخشيدون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت الدائرة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالجنود المصرية أن عبى بعض فالتهم النهر وسلموا إلى جوهر ، ومن ثم سمل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا مرابطين على المخاضة لحراستها . فتم انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبى النيل مع رجاله في السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٣٥٨ هـ) (٢).

وبذلك تم فتح مصر ودخلت في حوزة الفاطميين فاتخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ما امتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسية .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم إبلادهم بين الجند . لهذا لانعجب إزارأينا المصريين يخشون هاقبة خروجهم على العهد الذى عرضه عليهم الوفد الذى أنابوه عنهم فى مفاوضة جوهر فى الصلح فيرجون أبا جعفر مسلم العلوى أن يتدخل فى الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهر ا قد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدأوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٢) أبو المحاسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والمقرئى : انماظ الحنفى ص ٧٢

وهنا نرى جوهرًا يقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المهرين وأذاع على جنوده بيانًا يحرم فيه عليهم الإتيان بأي عمل من أعمال العنف والشدّة ، كما جدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن في البلاد في ذلك الكتاب الذي ينم عن أدب القائد الفاطمي وتواضعه وهو في كامل قوته وفتوته . وهاك نص هذا العهد بعد البسملة نقلًا عن المقرئ :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون فوقفت على مأسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجملت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور الهاربين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى في يوم الثلاثاء لسبع عشرة تخلص من شعبان ، (١) .

وبذلك زالت مخاوف الأهالي وأصبحوا فى أمن ودعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علمًا عليه اسم المعز لدين الله وأمنّا الناس من جديد وأعلنّا عدم مطالبتهم بأية كلفة أو مؤونة فابتهج الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان الغد (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرض » فقبلوا كلهم الأرض بين يديه عدا الشريف

(١) المقرئ : اتعاط الحنفى ص ٧٢

والوزير . وتقدم الناس واحدا واحدا ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى القسطنطينية .

ولما غربت الشمس عبرت الجنود الفاطمية الجسر وبين أيديهم الصناديق المملأة بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جوهر في حلة مذهبة في فرسانه ورجاله وعسكر بجيشه في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة . وحين ذهب المصريون في اليوم التالي لتهنئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر المعز في الليل^(١) .

ولما اتصل بالمعز نبأ فتح مصر سر سرورا عظيما وأنشد محمد بن هانيء شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر
قد جاوز الاسكندرية جوهر تصاحبه البشرى ويقدمه النصر^(٢)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعاً عن مصر وأصبحت هذه البلاد ولاية فاطمية . فغدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً ، ووافست القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السفلية المتداعية . وقد كان لتلك المنافسة أبعاد الأثر في الحضارة ،^(٣) .

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لمذ نفوذهم إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت جزءاً من أملاك الدولة الإخشيدية وبذلك تحقق الغرض الأول الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو إنشاء دولة فاطمية في الشرق والغرب^(٤) .

(١) ابن خلدون : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ والمقرئزي : انعاظ الخلفاء

ص ٢٧

(٢) ديوان ابن هانيء الأندلسي ص ٦٨

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 119—120

(٤) Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية :

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلائهم على مصر معناه الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية في المشرق والمغرب ، حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية . ولم يحمل الإخشيديون — وقد دالت دولتهم في مصر — ما كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله بن طنج الإخشيدى والى الرملة ودمشق العدة لملاقاة الفاطميين ، فاستخلف شمو لا الإخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمو لا لم يخلص للحسن ، وكتاب جوهر ا يدعو لهههور إلى دمشق ووعدوه العون على فتحها ، ثم تقاعد عن نصره الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، في الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من البربر وأحد قواد المعز الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما هزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهر أأراد بذلك أن يبعد جعفرأ عنه ويطوح به في بلاد الشام حتى

لا ينافسه في مصر . فقد كان جعفر يرى في نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بأمر مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكانب ولاية الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز وبهدم حسن المكافأة ، ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن حميد الله في الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده^(١) ، ثم سيق إلى القسطنطين فحبس بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة فالك الذي وليها من قبل الأخشيديين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقى مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رعاياه . وقد اتفق وصولهم في اليوم الذي قتل فيه فالك وإلى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وفادتهم ، فعادوا إلى دمشق ساخطين عليه وعلى جنده من المغاربة^(٢) . وهذا يفسر لنا الصعوبة التي لاقاها جعفر في استيلائه على دمشق .

بعد أن هزم جعفر بن عقيل ومن إليهم من العرب في حوران وطارد الغالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمول قد تركها الملاقاة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى في المدينة وعم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق مشاة وفرسانا لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت

(١) أبو المحاسن ج ٢ ص ٣٠٩

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٨١

المغاربة على جند الشام وهزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألغوا النار في أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق هزيمة جندهم وأنه لا قبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى رأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأثار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكوا نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن نحدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهليون بداً من أن يخطبوا وده . فذهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا إليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرغن في التراب بين يديه^(١) ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم في الحديث واستقر رأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق . وفي ذلك اليوم ركب جعفر في أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حذف اسم الخليفة العباسي من الخطبة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمي ، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٥٩ هـ^(٢) . وقد انتهر أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فذهبوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بداً من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم مما حدث وطلب الأمان من جديد . فقال لهم « دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلوهم »^(٣) . ثم هددهم باستعمال

(١) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٨٢

(٢) أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٩

(٣) المقرئى : انعاظ الحنفى ص ٨٣

الغنف والقسوة معهم، فهدأوا روعه وتلطفوا معه في القول، حتى وعدهم العفو إذا هم دفعوا دية من قتل. فجمعوا له الأموال السكينة حتى ساءت حال المدينة لما نزل بأهلها من الإرهاق.

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر في ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم ويأبسونهم، مما أثار نفوس الأهلين عليهم ووقف حجر هرة في سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر وبعد نظره وحسن سياسته. فانه لما دخل الإسكندرية أمر جنده بالسكف من أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها إليه، مع أن جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن فلاح الذين وجدهم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين.

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ في دمشق وأنه لن يستطيع توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالقضاء على زعماء الفتنة، فأرسل جنده من المغاربة في طلبهم، فقبضوا عليهم، فأمر جعفر بهم فحضر بهم وأغناقهم وصابحت جثثهم وعلمقت رءوسهم على الأبواب، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عهودا ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عهودا، وكانا من أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبي يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض عليه عند تدمر وأرسل إلى جعفر حيث شهر به. فحمل على جمل وفوق رأسه قلنسوة وفي لحيته ريش، وبيده قصبية^(١) ثم بعث به إلى مصر. وقد ذكر أبو المحاسن^(٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد، قال ابن فلاح: من أتاني به فله ألف درهم. فلقبه ابن خلبان العدو فقبض عليه وساقه إلى

(١) المقريري: اتعاط الحنفيا ص ٨٣

(٢) ج ٢ ص ٤١٠

ابن فلاح فشهر به . ثم طلبه ليلا وقال له : « ما الذى حملك على ما صنعت ، ومن قد بك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ما حدثنى به أحد وإنما هو أمر قدر ، فرق له جعفر ووعدته بأن يكاتب فيه القائد جوهرأ . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمه . أما محمد بن عهودا فقد لحق بالقرامطة فى الأحساء هو وظالم بن موهوب العقيلي والى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق الغرض الذى كانت ترمى إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدّة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستمتهار بأرواح الأهلين ، أثر سيء فى صرف قلوبهم عنه ومشايعة زعمائهم وتأمرهم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهمزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الخرقاء فى استنجد أهل الشام بالقرامطة وأفتسكين مما سنّفصله بعد .

تهريب سلطنة الفاطميين فى سورية :

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لزعم القرامطة الحسن ابن احمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فصمم القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يتردد الحسن القرمطي فى أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسى السفى فى بغداد ضد الفاطميين الشيعة فى مصر . بيد أن الخليفة العباسى قد رفض التحالف معه . ففسكر الحسن فى استمالة بنى بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ الفعلى فى بلاد العراق ،

فرفض هؤلاء أيضاً أن بحالفوه ؛ ولم يقبل التحالف معه سوى أمير الرحبة (١) من الحمدانيين وبعض القبائل العربية (٢) .

وقد سار الحسن القرمطي الملقب بالأعصم إلى الدكة (٣) حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تخاذلت عنه وانقضت من حوله ، فمزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٤) ذى الحجة سنة ٣٦٠ هـ) وقد عثر محمد بن عصفودا على جثته خارج دمشق ففطح رأسه وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه إسحاق الذي قتله جعفر وصلبه (٥) .

بذلك انتهت حياة القائد الذي نشر سلطان الفاطميين في سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التي قامت في وجهه .

وقد عزا المقرئى ما حل بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطأ وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكاتبه وكان المعز موقفاً في جوهر ، مبيناً ما بذله من الجهد في فتح بلاد الشام وفلسطين (٥) . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المعز وهو ببلاد المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتاب منه يذمه إلى ما ارتكبه من سوء التصرف ويأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكانة جعفر في نفس المعز ، تلك المسكينة التي لم تفقده شيئاً بجانب تمسك المعز بجوهر وثقته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفراً من الصعاب في

(١) الرحبة : بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة : بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٥) الخطاط ج ١ ص ٣٧٨

فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطلب الإمداد منه خشية أن يتقاعد عن نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطي وأوقع بجعفر وأرداه قتيلا . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يا منزلا عبث الزمان بأهله فأبادهم بتفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يضر وينفع؟

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، وامن الخليفة الفاطمي المعز على منبر المسجد الأموي بدمشق . وقد علق الدكتور De Lacy O'Leary على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهي للإمام الفاطمي . ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين غالين في عدائهم للشيعنة أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الانتماء إلى آل علي والذين لا يكثرثون بالاعتبارات الدينية أيا كانت »^(١) .

(١) أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركي الشرابي غلاماً لمعز الدولة أحمد بن بويه . ولم يزل يترقى حتى عظم شأنه في بغداد وغلب على عز الدولة بمختيار بن معز الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتتم أفتكين بالاشجاعة والإقدام ، إلا أن أصحابه انفضوا من حوله وتركوه ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة في نحو أربع مائة رجل . فخصمه العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بغليك ، بعد أن بعث إلى أبي محمود إبراهيم بن جعفر وإلى دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي يعلمه

بأن أفتسكين قد غادر بغداد وأنه في طريقه إلى دمشق لإقامة الخطبة للخليفة العباسي . فأرسل إليه والي دمشق جيشا سار نحو حوشبة لمقاتلة أفتسكين الذي أمده أبو المعالي بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه لا قبل له بمنازاته عاد إلى بلعبك . وسار أفتسكين إلى حمص ، فتلقاه أبو المعالي بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار في ذلك الحين بدمشق جماعة بزعامة ابن الماورد و حاربوا ولاية الممّن واشتد خطرهم . فلما بلغهم خبر خروج أفتسكين بعثوا إليه بمحمص يدعونه ويعمدونه باذكاء نار الثورة وأن يكونوا معه على جنود الممّن وعونا له على إخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها^(١) . ولا غرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المغاربة لمخالفتهم لهم في المذهب الديني من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين في بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتسكين حتى وصل بثنية العقاب في أواخر شعبان سنة ٣٦٤ هـ^(٢) .

دخل أفتسكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلي . ففر ظالم من وجهه ودخل أفتسكين بلعبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فاقهزوا فرصة دخوله بها ، فنهبوا وانتشروا فيها يحرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣٦٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتسكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطلبوا إليهم الرحيل في مقابل مال يؤدونه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتسكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأهوال لنفوذ ابن الماورد وأصحابه بها . فأمر إمبراطور الروم بالقبض على ابن الماورد . واشتط أفتسكين في جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٩ .

(٢) ابن القلائسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ .

الإمبراطور وذهب إلى طرابلس . وبرحيله عن دمشق قوى نفوذ أفتككين
فيها ودعا للطائع العباسي^(١) .

وفي ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد
الفاطميين الذين طالما تغنى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة
لهم . فقد استدعاهم أفتككين من الأحساء لمعاوفته على قتال الفاطميين . فقدموا
دمشق في سنة ٢٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتككين الذين شئت المعز
شملهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على إخراج الفاطميين من هذه
البلاد .

ترك القرامطة وأفتككين دمشق إلى الرملة فنزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم
واصل أفتككين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا ،
وكان بها ظالم بن موهوب العقيلي وابن الشيخ واليها من قبل المعز . فقاتلهم
ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى
القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتككين من جنود
المعز فقطع أيدي القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا
وبها حامية المعز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتككين في الشام واستعصى أمرهما على
الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر ،
وهو ما ستفصله في الباب الخامس .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٩ .

حصن جوهر غارات القرامطة عن مصر:

خشى جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التي أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقرئ أن السبب الذي حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وضم بين جوانبه الخطط التي تكونت منها القاهرة المعزية ليكون هذا السور حصناً منيعاً ضد هجمات القرامطة^(١) . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدد القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين في الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن فلاح وأسرهم وقتلهم .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حيان الذي ولاه عليها جوهر في شوال سنة ٣٦٠ هـ إلى يافا . ثم استأنف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣٦١ هـ^(٢) ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف^(٣) ونهب ما كان يملك من الخيل والإبل ثم هاجم الفرما ودخلها على حين غفلة من أهلها في المحرم سنة ٣٦١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ في برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تنيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات في جامع عمرو لخص الناس

(١) الخطط ج ١ ص ٣٥٧

(٢) أبو الحسن ج ٤ ص ٤٣٢

(٣) في ديوان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عبد العزيز هذا . ولا غرو فإن المتنبي هو الذي سهل له طريق الهروب من مصر وأضافه عنده

على ههيمان جوهر . ثم أمعن الحسن السير في داخل البلاد وعسكر برجاله في هين شمس (هليوبوليس) وهدد القاهرة (١) .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله . فحفر خندقاً أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الإخشيد ، وبني قنطرة على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجلاً من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة في التخلص من حكمهم ، وما زالوا يبذرون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت الفوضى في جيوشهم ودب الانقسام في صفوفهم (٢) .

وقد بدأ القتال مع القرامطة في أوائل وبيع الأول عند باب القاهرة ، وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت الحرب بينهما سجالاً حتى حاول زعيم القرامطة وفائد جيوشهم الحسن بن أحمد الاستيلاء على الخندق عنوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستعرت نار الحرب التي انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم (٣) .

وقد أظهر جوهر في هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل على القرامطة حملة صادقة فردهم على أعقابهم مدحورين مهزومين بعد أن كادت البلاد تقع في أيديهم وتعرض لكثير من الولايات والمخن . وليس أدل على مبلغ استياء جوهر منهم وحنقه عليهم من إعلانه في البلاد عقب رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من أتى له بقرمطى أو برأسه بثلاثة آلاف دينار

G. wiet : Precis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P.32 (١)

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفيا ص ٩٣ .

(٣) أبو الفداء : ج ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ ، المقرئى : اتعاظ الحنفيا

وخمسين خلعاً وخمسين سرجاً^(١) . وقد استولى المصريون على مازكة القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال .

ولاشك في أن جوهر أمدن بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المهريين من الدفاع المجيد ؛ فقد رأوا بلادهم مهددة بالفتنة ، وأمواهم معرضة للضياع وأرواحهم للهلاك . فصعدوا للقتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا من مالا العدو من الجند الإخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وفي ذلك يقول ابن القلانسي « ونادى جوهر في الإخشيدية فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم^(٢) ، وكانوا ألفاً وثلاثمائة مقاتل ،^(٣) .

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقلاقل في البلاد . فرأى جوهر أن الأحوال لا تستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوله عن العهد الذي قطعه على نفسه بمصافاتهم ، ولم يردأ من منع أذاهم باقصائهم عن الجمهور .

ولما سمع المعز وهو ببلاد المغرب خبر غزو القرامطة مصر ، أرسل جيشاً من القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحربية وعزم على إخضاع مدينة تلميس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها وأكفنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسمائة أسير ، وعاد الحسن إل دمشق ليتأهب للقتال من جديد^(٤) .

(١) المقرئى : اتماظ الحنفا ص ٨٦

(٢) وقد أطلق المعز سراحهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ : المقرئى : اتماظ

الحنفا ص ٩١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٤) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate p . 109 .

ولما وصل المعز إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضاً لخطر القرامطة . فإنهم ما فتئوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لا تزعجهم من الفاطميين . فأرسل المعز إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتاباً هنوآنه :

« من عبد الله ووليه وخيرته وصيفه معد أبي تميم المعز الدين الله أمير المؤمنين رسالة خير النبیین ونجل على أفضل الوصیین إلى الحسن بن أحمد ^(١) .

وقد بدأ المعز هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن فيه بسنة الأوائل الابتدا بالاعذار والانتها بالإندار ، كما ذكره أن جديده أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويعتقدان مذهبهم . ثم ندد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستياءه منه في تلك العبارة : وأما أنت أيها الغادر الخائن الناكث الباين على هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استقر دونى أثرك . وإنك منى ليمنظر ، وفي نهاية الكتاب عرض عليه المعز ثلاث خصال لينتار لنفسه منها واحد : إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب فى هروبه مع جعفر وجنده بدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردهم أحياء ، وهو ما لا قبل له به ، وإلا أن يسير هو وأتباعه إلى المعز فيحكم عليهم بالقصاص أو الفدية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به الخليفة الفاطمى اليه بتملك الكلمات : لقد تسلمت كتابك المملوء بالآفاظ ، الخالى من المعانى وسياأتيك جواى .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطى كان ينوى إعادة الكرة والإغارة على

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التي حلت به على يد جوهر ، بل ولم يرهبه ما أظهره المعز في كتابه اليه من التباهى بقوته والاستخفاف بجند عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن بعد هزيمته :

زعمت رجال العرب أنى هبتها فدى إذا ما بينهم مطلول
يامصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقانى النيل^(١)

وقد ظهر القرامطة في شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ للمرة الثانية في عين شمس ، وعاونهم أنصار الإخشيدية الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر . فبعث المعز ابنة عبد الله إلى الوجه البحرى على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف مقاتل ، هزموا القرامطة في عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم تقف من عضد القرامطة . فقد اجتمعت أمام الخندق الذى حفره جوهر وأعدوا المعدات لاجتيازه^(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمى بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بنى طلى من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائى . وكانت هذه القبيلة أقوى العناصر في جيش الحسن القرمطى . وبذلك نجحت سياسته في فصل هذه القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المعز لذلك مائة ألف دينار . ولما لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يكفى لتحقيق هذه الفكرة ، أمر المعز بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغطاة بطبقة رقيقة من الذهب ، وضعت في أكياس ووضع في أعلاها قليل من الدنانير المضروبة من الذهب الخالص . فلما استعرت نار الحرب بين الفريقين انصرف بنو طلى ، وولى

(١) المقرئى : انما ظ الحنفا ص ١٣٣ — ١٣٤

(٢) Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 113

ابن الجراح منهزماً ، وتشتت شمل القوة التي بقيت مع الحسن القرمطي ، فنهب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسمائة وذلك في رمضان سنة ٣٦٣ هـ ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة في الضعف لوقوع النزاع بينهم ، فارتدوا عن مصر إلى غير رجعة (١) .

الدعوة الفاطمية في مصر :

كانت القيروان أو المهدية لاتصلح حاضرة للدولة الفاطمية ، لبعدها عن الولايات الإسلامية التي كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالشام وفلسطين . ولما كانت مصر واسطة العقد بين الأمم الإسلامية ، فضلاً عما اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فسكر المهدي الفاطمي في غزوها وجعلها حاضرة الدولة الفاطمية بعد أن وطد سلطانه في بلاد المغرب . ولا غرو فإن فسكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن بعض . فإن امتلاك مصر معناه نشر عقائد المذهب الفاطمي في ثلاثة من الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهي المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل من الشام والحجاز تحت سلطان مصر في ذلك الحين .

غزت جيوش المهدي الفاطمي هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففي سنة ٣٠١ هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧ هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ .

وهذه الغزوات ، وأن كانت قد فشلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد مهدت السبيل لنشر الدعوة الشيعية في مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعطف على تلك الدعوة ، وكاتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدوهم العون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألقاها المعز على رؤساء كتامة قبيل رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها : « واني مشغول بكتاب رد على من المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي ^(١) » . وما ذكره أبو المحاسن من أن الشيعة في مصر أرسلوا إلى المعز كتباً جاء فيها : « إذا زال الحجر الأسود ^(٢) فقد ملك مولانا المعز الدنيا كلها ^(٣) » ، وكان لهذه المسكاتبات التي دارت بين المصريين والمعز أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر ^(٤) . ثم هذه الآيات التي نظمها ابن مهران بمن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، ننقلها عن السكندی :

وقد حشدوا لمصر ودون مصر (له) خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلاً حتى تخطى وجاز بحمله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه ونافقونا وكل فى البلاد له موطن ^(٥)

ويظهر أن الدعوة للفاطميين فى مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومى والى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشى استفحال أمر هذه الدعوة . فأخذ فى اضطهاد القائلين بها ، فسيجن كثيرين منهم ونكل بهم .

ولا شك أن الدعوة للبيت العلوى قد صادفت نجاحاً عظيماً فى مصر ، فقد أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعى ويعمل على نشره . ويرجع

(١) المقرئى : انماط الخنفا ص ٦٠ - ٦٦

(٢) يقصدون كافورا الذى كان يتولى حكم مصر إذا ذاك

(٣) ج ٢ ص ٤٤٣

(٤) المقرئى : انماط الخنفا ص ٦٦

(٥) كتاب الولاة وكتاب القضاء ص ٢٧٢

ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين في صفوف جندهم ، الذين أوفدوهم لفتح مصر ، دعاة يهودون إليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمي . أضف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال السكتب بخطهم مذيلة بإمضاء انهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها لاعتناق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ - ٣٣٠ هـ ، ٩٣٤ - ٩٤٥ م) كتابا بيده إلى محمد الإخشيد وإلى مصر يدعو إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي وإزالة اسم الخليفة العباسي منها . غير أن هذا السكتاب لم يكن له أثر يذكر في نفس الإخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا السكتاب بشيء .

هلى أن إرسال الخليفة العباسي محمد بن رائق الخزري إلى الشام لأخذ مصر وطرد الإخشيد منها قد أحفظ الإخشيد وأثار حنقه . فتبدلت صلة الصداقة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي إلى عداوة مستوحشة . فأمر الإخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وإقامتها للخليفة الفاطمي .

وقد روى ابن سعيد نقلا عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر أن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي وأمر بذكر الخليفة الفاطمي محله . وذكر أن السبب في ذلك هو ما اتصل بالإخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسي ، مما أثر في نفس الإخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمي^(١) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم في هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسي لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلا للخليفة الفاطمي . فإن المؤرخين لم يكشفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسي قد

حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسي لما حزن المؤرخون بموافقاتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة في الخطبة ونقشه على السكة من أهم مظاهر الخلافة في الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسي والإخشيد ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيد والفاطميين ، وظهور فريق من المتشيعين في مصر " يعمل على نشر المذهب الفاطمي - كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيد قد قطع الخطبة للخليفة العباسي المطيع ولو إلى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الإخشيد عرض على القائم أن يزوج ابنه المنصور من ابنة الإخشيد . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته إلى الإخشيد . فأرسل هذا إليه صداقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الإخشيديين والفاطميين .

هذا ما رواه لنا ابن سعيد ونحن نشك فيه كل الشك . إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيد ، وهو أحد ولادة الخليفة العباسي ، أن يزوج ابنته من ولي عهد الخليفة الفاطمي الذي كان يهضم له العباسيون الكراهية والبغضاء . ولعل الخليفة العباسي قد سير ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيد حين اتصل بعلمه نبأ هذا الزواج ، فعدل الإخشيد عن المضي في هذا السبيل : ومات هو والخليفة الفاطمي بعد قليل ، واشتغل ابنه المنصور بالقضاء على ثورة أبي يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٢٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن قيام الثورات التي

أذكي نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبي يزيد — قد استنفدت جهود الخليفةين كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المعز رابع الخلفاء الفاطميين ، فحاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه إليها في عهد كافور الإخشيدي ، ووصلت إلى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطة دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المعز لدعوته هو ورجال بلاطه وموظفي دولته للدخول في طاعة الخليفة الفاطمي . وقد أخذت البيعة للمعز من معظم رجال الإخشيديين والكافورية وسائر الأولياء والكتّاب (١) .

وبما يدل على اهتمام كافور بشئون الأشراف في مصر هذه الحكاية التي نرويها عن ابن سعيد (٢) الذي يقول إن كافور كان راكباً في موكبه فسقط سوطه فناول له إياه أحد الأشراف (٣) . فقبل كافور يده وقال له : نعتيت إلى نفسي فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي هاية يستشرف لها .

وبما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به : ارحمني يرحمك الله ، فدفعها أحد رجاله دفعاً عنيفاً ، فسقطت ، فغضب كافور غضباً شديداً ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشغعت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها . فأتضح أنها علوية . فأسف كافور على ما حدث ثم أغدق الهبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف (٤) .

* * *

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ج ٢

ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوى

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

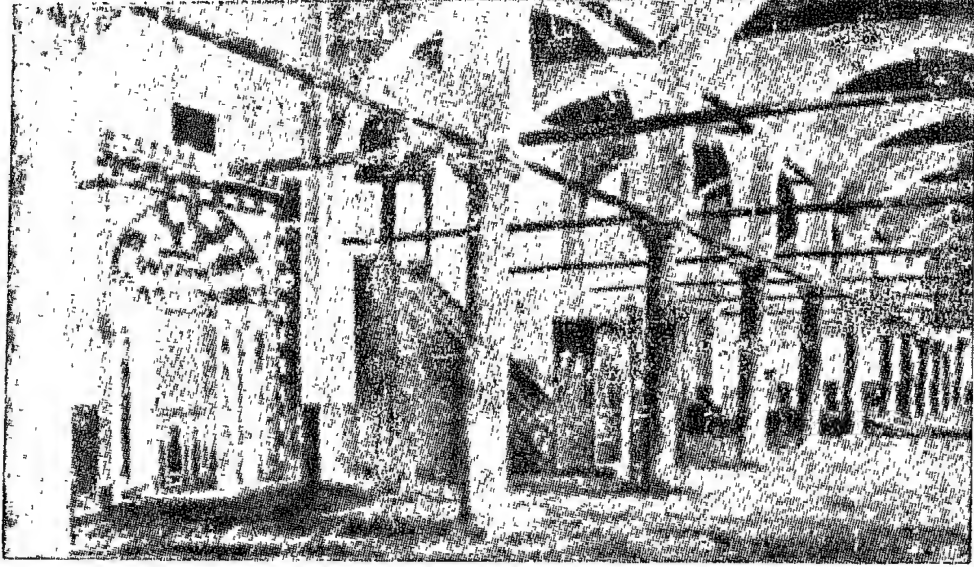
لما تم للفاطمين فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر في بث الدعوة للخليفة الفاطمي خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق في تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يهتق المذهب السني ، في حين كان الشيعيون أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للعباسيين وإقامتها للمعز الفاطمي ، كما أمر بأن تضرب السككة باسم الخليفة الفاطمي ومنع لبس السواد شعار العباسيين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرم على الناس قراءة التسميح « سبح باسم ربك » في صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند السنيين (١) .

وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي تقام في مصر في عهد جوهر في المساجد ، وبخاصة في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذي بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تذاع على يد داعي الدعاة ومن كان يعاونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد في مصر مقصوداً على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية ، ومثابة لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الأول الذي كانت ترمي إليه سياسة الفاطميين في مصر هو جذب الناس إليهم وإدخالهم في حظيرة مذهبهم ، فإنهم لم يألوا جهداً في بث تعاليم هذا المذهب في نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول إلى أغراضهم السياسية .

(١) المقرئى : اتعاظ الخنفاص ٧٨



جامع عمرو بن العاص

وكان في مصر عندما فتحتها الفاطميون مسجداً هما جامع عمرو في مدينة
الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون في
القطائع . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة الفاطميين
الجديدة . لذلك نرى أن تتكلم عن بث الدعوة الفاطمية في كل من هذه
المساجد الثلاثة ، انزى إلى أى حد نجح الفاطميون في هذا السبيل .

خطب للمعز في جامع عمرو في التاسع عشر من شعبان سنة ٣٥٨ هـ (سنة
٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر على الفسطاط بأيام قليلة^(١) . وكان ذكر المعز
في خطبة الجمعة بدل اسم الخليفة العباسي حادثاً هاماً في تاريخ مصر^(٢) . فقد
شاد الخطيب في خطبته بفضائل العلويين — الأئمة الصالحين — الذين انتهك

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٠

الخارجون من السنين حقهم^(١) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنة بصورة أشد عداوة مما كانت عليه في الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب في لعن الآخر والخط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذي القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت ، وزاد في الخطبة العبارة الآتية : اللهم صل على المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين^(٢) . وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو باللون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٦ هـ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو : « الله أكبر الله أكبر » . وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلي جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسي وأذن المؤذنون : « حي على خير العمل » ، وهي من العبارات المألوفة عند الشيعة .

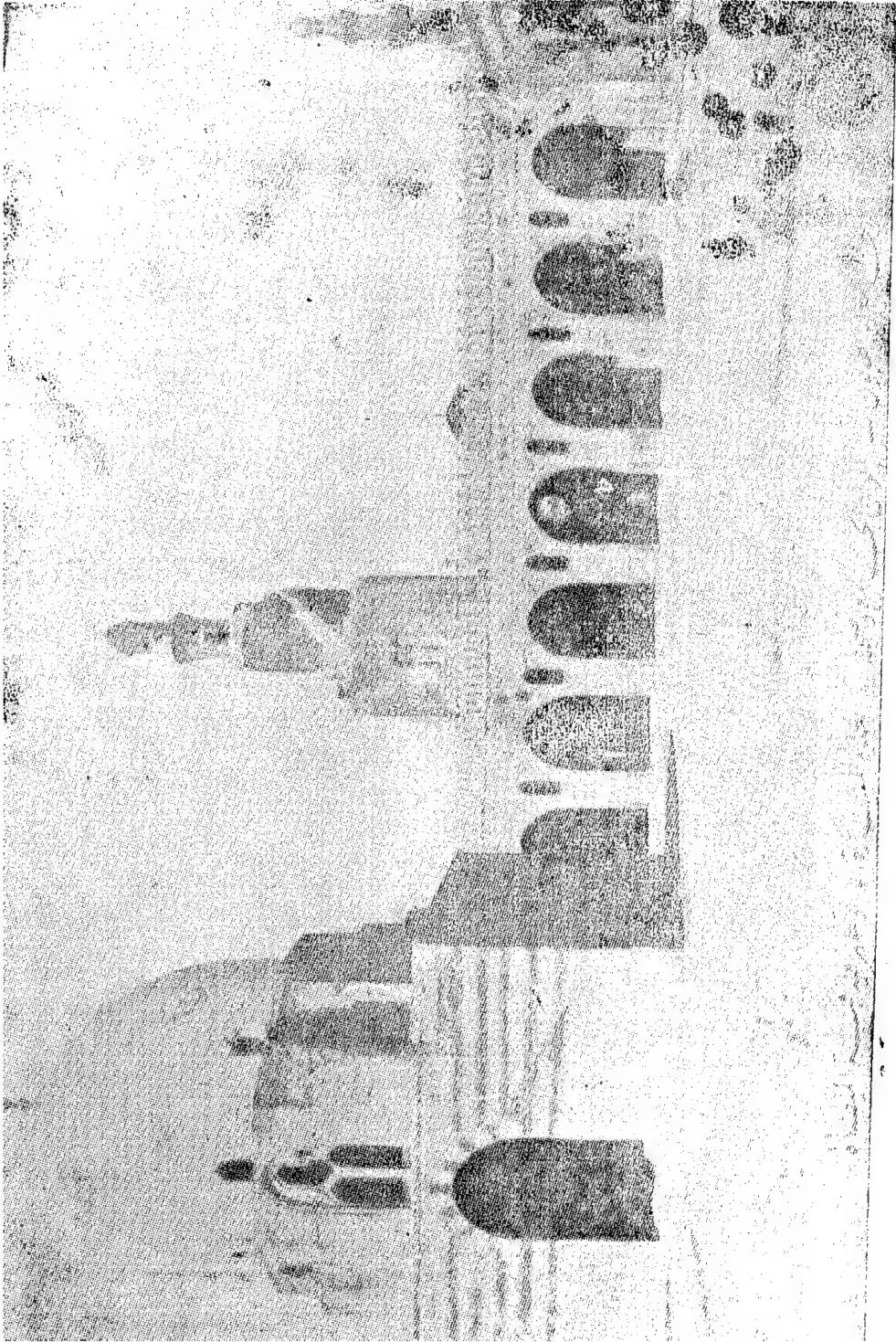
وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع العسكر ، ومنه إلى جامع عمرو . ويحدثنا المقرئ أنَّهُ حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسي قد شاد في خطبته

(١) من خطبة هبة الله بن أحمد التي ألقاها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة

٣٥٨ هـ ، المقرئ : انعاظ الخنفا ص ٧٥ — ٧٦

(٢) المقرئ : انعاظ الخنفا ص ٧٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن

خلسكان ج ١ ص ١٢٠



جامع أحمد بن طولون

بذكر أهل البيت وعدد آثارهم ، كما أنه دعا للقائد جوهر الذي لم يقر الخطيب على ذكر اسمه في الصلاة بحجة أن مولاه المعز لم يأمر بشيء من ذلك^(١) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لاثبت عقائد مذهبهم واجتماع أشياء لهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ ، ولم يزد جوهر شيئاً جديداً في الأذان والخطبة في هذا الجامع على ما أدخله عليهما في جامع عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المعز ، فتطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً . فقد أمر الخليفة الفاطمي بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي وخير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ،^(٢) . وفي المحرم سنة ٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المعز صلاة الجمعة في مصلى القاهرة التي أنشأها جوهر في رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة الشيوعية مظاهر جديدة في الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكبرون على الميت أربما فقط ، فأمر المعز بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتضياً في ذلك أثر علي بن طالب . ولما مات أحد بنى عم المعز صلى عليه هذا الخليفة في الجامع الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً^(٣) .

ولما وصل المعز إلى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المعز بنفسه بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاهم الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان الفاطميون في نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يدعونهم في جيوشهم لبيت الدعاية باسمهم . وكانت الدعوة للمذهب الفاطمي ، بعد الفتح ، تزداد على يد داعي الدعوة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المعز مكاناً في قصره

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الخلفاء ص ٩٠ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .

ولا يفوتنا أن من أهم أغراض السياسة التي انتهجها جوهر في مصر هي نشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المعز . ولسنا نشك في أن جوهر أ قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيسا هو داعي الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فإن الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيرا ببث دعوتهم في المساجد الأخرى بجامع عمرو وجامع ابن طولون التي يؤمهما السنونيون . ولما بنى جوهر القصر لمولاه المعز اتخذ المعز ليكون مقرأ لداعي الدعاة .

وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية إثنا عشر نقيبا ، كما كان له نواب يزورون عنه في سائر البلاد المصرية ، وبحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه في يومى الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعي ، فيعرضها الداعي بنفسه قبل إلقائها على الخليفة فيقر ما يقبله منها ويذيله بامضاءه ، ثم يردها الداعي إليهم .

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس في مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان يجلس على كرسي الدعوة في الديوان الكبير ، ويبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلسا خاصا يعرف بمجلس الداعي . وفي هذين المكانين كان يحاضر للناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعي . فإذا ما فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على الحاضرين ساروا إليه لتقبيل يده ، فيمسح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إمضاء الخليفة . وكان داعي الدعاة يجمع النجوى^(١) من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سراة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين دينارا وثلثي دينار يعطى رقعة مذيلة بإمضاء الخليفة فيها : بارك الله فيك وفي مالك وولدك ودينك ، ، فيدخرها ويفخر بها .

وكان داعي الدعاة يواظب على الجلوس في القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفرد لآل على مجلسا ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، وللأمة والنازحين إلى

(١) النجوى : الصدقة وهي عبارة عن ثلاثة دراهم وثلاث .

مصر من البلدان الأجنبية مجلساً ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلساً ، كما كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(١) .

وكان في قصر الخليفة مجموعة عظيمة من الكتب ، الغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقيها للناس . ولا غرو فقد عنى الفاطميون عناية خاصة بازدياد عدد الكتب في المذهب الشيعي ، حتى كانت مكتبة القصر في القاهرة تنافس غيرها من المكتبات في العالم الإسلامي^(٢) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين في نشر دعوتهم على الإشادة بمحمد آل البيت ، بل عملوا أيضاً على الخط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، ثم شأن الخلفاء من بني أمية وبني العباس والصحابه الذين لم ينهروا عليها ولم يقولوا بأحققيته في الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل على وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد في مصر وفي البلاد التي كانت تحت سلطانها . كما نرى الخطباء في عهد الفاطميين يلعنون الصحابة على كافة المنابر حتى لقد ألزم جميع الموظفين المصريين أن يعتنقوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيداً أن تكون الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السنين إلى التحول إلى المذهب الشيعي .

النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر :

كان من سياسة جوهر أن يحمل المغاربة الشيعيين محل المصريين السنين في المناصب الهامة . ولا غرو فقد رأى أنه من الطبيعي أن تؤول أكثر مناصب

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٩٣١

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٤٦

الدولة إلى أنصاره من المغاربة الذين قامت على أكتافهم الدولة الفاطمية . وكما حدث ذلك في الدولة العباسية ، فقد كانت المناصب الهامة في الدولة تسند إلى الخراسانيين لما بذلوه من المساعدة في إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر في تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب السني سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، ناظرا إلى معتنقي هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر ينوب عن الخليفة المعز في إدارة شئون هذه البلاد . وكان في سياسته شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المغاربة ، لكي يستطيعوا الإلمام بالنظم الإدارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية في عهد الإخشيديين . ويوضح لنا المقرئى هذه السياسة بقوله : إن جوهر لم يدع عملا إلا جعل فيه مغربا شريكا لمن فيه ، (١) .

وقد رأى جوهر أن ينفذ سياسته تدريجيا ، حتى لا يثير شعور السنيين الذين كانت إليهم إدارة أمور الدولة ، فنتعطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام في البلاد . وقد نجح جوهر في سياسته ، بحاحا كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها في أيدي الشيعة في سنة ٣٧٩ هـ أى بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق في أيدي السنيين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفي الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعي ، مذهب الدولة الحاكمة . وكان الفاطميون يعاقبون بالعزل كل من يعرف بالهوادة في تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعي في مصر بين الموظفين السنيين خشية الاضطهاد أو رغبة في الوصول إلى المناصب العالية في الدولة ، وحذا حذوهم في ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

وفي أوائل سنة ٣٦٣ هـ تغيرت إدارة المناصب في مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة — بعد أن فتح العرب مصر — في مدينة الفسطاط ، فلما تأسست مدينة العسكر بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا في القاهرة ^(١) . وقد ذكر ابن دقماق ^(٢) أن صاحب الشرطة قد توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر مصر . فأُسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في الفسطاط وتقلدها عروبة ابن إبراهيم وشبل الممرضى ^(٣) . وقد صرف المعز بن عبد السميع عن الخطابة بعد أن تقلدها أربعاً وستين سنة ، وأسندها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسيني في جامع عمرو ، كما أسندت إلى أخيه في الجامع الأزهر في سنة ٣٧٩ هـ ^(٤) . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المغاربة الشيعة .

وكانت أهم الأعمال الإدارية التي تقلدها الشيعة هي جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاة ، والحسبة .

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القحط والمجاعة التي انتابت البلاد . فقد أنشأ مخزناً عاماً للحبوب عهد برقايته إلى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار الحبوب .

كان يتولى جباية الخراج في مصر حين فتحها جوهر ، هلى بن يحيى بن العرمزم . فأقره جوهر في منصبه . ولم يكدهمضى شهر على ذلك حتى أشرك

(١) ابن ميسر ص ٤٥ .

(٢) ج ٤ ص ١١ .

(٣) المقرئى : انماظ الحنفيا ص ٩٥ .

(٤) الخطاط ج ٢ ص ٩٩ .

معه رجاء بن صولاب . ويغلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعاً للسياسة التي سار عليها جوهر من إسناد المناصب العالية للمتشييعين من المغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفي الخراج لم يلبثوا أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرفا ابن العرم وم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلوا جباية الخراج قسمين : أحدهما في يد علي بن طباطبا وعبد الله بن عطاء الله ، وثانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري .

وقد ذكر المقرئى (١) أن جوهر ارجى خراج مصر في السنة الأولى من ولايته ٠٠٠ و ٤٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا في أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وعمها الوباء على أثر انخفاض النيل مدة سبع سنوات (٣٥١ — ٣٦٠ هـ) . ولم تنقته المجاعة إلا بعد شهر اكتوبر سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أى في أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها .

وقد عهد الممنز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، فجمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد . كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي كانت تفرض على كل منها ، فوضعا نظاما دقيقاً لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اهتمت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيت بدراسة الشكايات التي كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب . وسلكت في تنفيذ النظام الجديد، سبيل الحزم ، فحمت دافعي الضرائب من اشتطاط همال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة أن زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر أنه قد بلغ ما كان يستخرج من الفسائط في يوم واحد

(١) الخطوط ج ١ ص ٩٩

مقدار يتراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار، وأنه قد استخرج من تليس ودمياط والأشمونين في يوم واحد أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار . وهذا بعيد كل البعد عن الحقيقة ، إذ لو كان المتوسط ١٩٠.٠٠٠ دينار في اليوم لبلغ في السنة ٣٦ مليوناً من الدنانير^(١) . وهذا شيء كثير لم تبلغه جباية مصر في عهد الفاطميين . والذي يغلب على الظن أن هذه الآلاف إنما هي دراهم لا دنانير .

وكان يتقصد منصب الوزارة ، عند فتح مصر على يد جوهر ، الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات ، الذي تولى هذا المنصب مدة طويلة في عهد العباسيين والإخشيديين . وكان سنياً غالباً . وقد أبى جوهر في بادئ الأمر أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب ، وقال وما كان وزير خليفة^(٢) . إلا أنه قد أقره في منصبه ، متمشياً في ذلك مع سياسته العامة في هذه البلاد . ولم يبق لابن الفرات من منصبه إلا الاسم فقط ، فقد عين جوهر خادماً يبيت مع جعفر في داره ويلزمه في غدوانه وروحانه ويراقبه في حركاته وسكناته^(٣) . ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير إلى حد كبير . ويحدثنا ياقوت أن جعفر بن الفرات اعتذر عن البقاء في دست الوزارة بعد وصول المعز إلى مصر^(٤) .

لما علم جعفر بقرب وصول المعز إلى مصر أبى أن يستقبله في الإسكندرية

(١) ابن ميسر ص ٤٦

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٧٠ ، ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

(٣) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ٨٥

(٤) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ١١٢

فرأى كبار السنيين في ذلك إحراجا لمركزهم، وفرصة يستغلها المعز لاضطهادهم وأخذهم بالشدّة والعنف. ومن ثم طلبوا إلى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يتعرضوا لحنقه وسخطه. فأذن جعفر لطلبهم، وخرج لاستقبال المعز في الإسكندرية.

ولسنا نشك في أن المعز قد اتصل بمسامحه ما كان من أمر هذا الوزير وإبائه الذهاب لاستقباله فأسرّها في نفسه. وقد قيل إن المعز سأل ابن الفرات وأحج الشيخ؟ فقال: نعم. فقال الخليفة: وزرت قبر الشيخين (أبو بكر وعمر)؟ ولما رأى جعفر بذكائه ودهائه أن المعز قصد بهذا السؤال إحراجا والإيقاع به، أجابه على الفور: «شغلني عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما شغلني أمير المؤمنين عن السلام على ولي العهد، السلام عليك يا ولي عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته». وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المعز على جعفر منصب الوزارة، فاعتذر عن قبوله. فطلب إليه المعز البقاء في مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون هلى مقر بقعنه لاستشارته في الأمور الهامة التي تعرض له.

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسين. وقد عهد إليهما المعز بإدارة كافة شئون الدولة الحربية والمدنية، كما قلدهما في ١٤ المحرم سنة ٣٣٣ هـ الخراج والحسبة والسواحل والأعشار^(١) والجوال^(٢) والآحباس^(٣) والمواريث والشرطتين^(٤). ولا شك في أن إسناد هذه الأعمال

-
- (١) الأعشار: فرضها عمر بن الخطاب بأدى الأمر على التجار غير المسلمين.
 (٢) الجوال: هي عبارة عن اختيار الأحسن من كل شيء، سواء من الممتلكات أو الشاة.
 (٣) الآحباس: هي كل مايوقف على جهة من جهات الخير، ويصرف مايتحصل من أموالها، حسبما أراده الواقف.
 (٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٠

الإدارية الكبرى إليهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التي كان يتمتع بها جرهر من قبل. على أن ابن كاس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وهول علميه في محاسبة المال. فكان ابن الفرات يختلف إليه ويتناول الطعام عنده. وتوثقت أواصر الصداقة بينهما، ولا سيما عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كاس.

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بعزله من منصبه في عهد المعز، فقد تولى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) سنة كاملة (١). كما تقلد الخراج في سنة ٣٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن هلى بن عمر العداس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه. وفي ربيع الأول سنة ٣٨٣ هـ أسندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفي هذا الوزير سنة ٣٩١ هـ (٢). بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين.

كان قاضى القضاة في مصر، عند ما دخلها الفاتحون بقيادة جوهر، أبو الطاهر، وهو من قضاة المصريين السنيين، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٣٤٨ هـ. فرأى جرهر أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة محله قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم. فأقره في منصبه لغرض سياسى خفى، وعمل في الوقت نفسه على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد.

ولما وصل المعز إلى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الأرض بين يديه عدا أبا الطاهر فانه ظل راكباً حتى قرب منه المعز

(١) المقرئى : النخط ج ٢ ص ٨٤

(٢) ابن خلصكان : ج ٢ ص ١٣٩

فترجل وسلم عليه ولم يقبل الأرض ، فلمت ذلك نظر المعز ، وسأل أحد حجاجه عن الرجل الذي خالف الناس كلمهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهم إن كنتم إياه تعبدون) (١) .

أقر المعز أبا الطاهر فى منصبه جرياً على نفس السياسة التى اتبعها جده منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيداً أن يكون المعز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكاته وحضور بديته . فقد ذكر المقرئى أن المعز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » فأجابه على الفور « مارأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه ، . فاستحسن المعز ذلك منه ، مع علمه بأن أبا الطاهر رأى المعتضد والمكتفى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبى الطاهر قد اضمحل والزمه المعز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى (٢) . بل زاد على ذلك فاشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٢٦٢ هـ (٣) وأسند إليه النظر فى المظالم الخاصة بالمغرب . وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والأسكندرية (٤) .

وفى سنة ٢٦٣ عين المعز قاضياً آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة

(١) الكندى ص ٣٨٧

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ١٩٠ نقلا عن

المقفى السكبير للمقرئى بليدن .

(٣) الكندى ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر ص ٤٤ ، المقرئى : انعاظ الخنفا ص ٩٢

النعمان المغربي ، فقامم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان للقضاء في جامع عمرو ، وأبو الطاهر في الجامع الأزهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة في شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ على أثر استقالة أبي الطاهر أسيخوخته وضعفه . وقد بدا ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبطل شقه عما جعل العزيز يقول بعد أن رآه على هذه الحالة : « ما بقي إلا أن يقددوه »^(١) ، وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ . فقد تقلد الحسين بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣ هـ وأسندت مقاليد الدعوة لقاضي القضاة للمرة الأولى ، فغدا يطلق عليه « قاضي القضاة وداعي الدعاة » .



كان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣٥٩ هـ . وقد أثار الصيارفة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية خال علي بن أبي طالب » . وذكر المقرئ^(٢) أن الصيارفة قد شغبوا عند ما علموا عزم جوهر على حرق رحبتهم ، ولكنهم عدل عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفي المحتسب المغربي تولى الحسبة سليمان ابن هشة الذي حدث هذا الشغب في ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب

(١) السكندی: ص ٨٥

(٢) المقرئ: اتعاظ الحفنا ص ٨٧

واسطة بين القاضى وصاحب النظر فى المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين . ولا هرو فقد كان منصب المحتسب من المناصب الدينية الهامة . فكان لىه الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واستيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لما دار خاصة تعابر فيها (١) . فكان المحتسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار فى أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وصنجمهم ومكاييلهم ، حيث يعايرها ، فإن وجد فيها نقصاً أباها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم تساهل معهم ، فكان يلزم من وجد فى ميزانه خللاً أو فى صنجه نقصاً بإصلاحه . وقد ظلت هذا الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية (٢) .

وكان المحتسب نواب يتوبون عنه فى القيام بهذه الأعمال فى مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء النواب يطوفون على أرباب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويختمون اللحوم ، ويباشرون بحال الجزارة ، ويلزمون رؤساء السفن ألا يحملوا أكثر مما يجب حملة ، ويأمرون السقائين بتغطية قريهم ومراعاة عيارها . ويمنعون معلمى السكتانين من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويحذرون معلمى السباحة من التفرير بالصغار .

وكان المحتسب يجلس للفصل بين الناس فى جامعى عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرهما ، حتى كان لزاماً على رجال الشرطة القيام بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

(١) الماوردى: الأحكام السلطانية : ص ٢٢٧ — ٢٣٠

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ . ابن خلدون : مقدمة ص

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدة ، وما كان منهم من نهب بيوت الأهلين وإجلائهم عنها . إلا أن جوهر أقد وضع بحسن سياسته حدا لما أتاه هؤلاء المغاربة من الفوضى وما أثاروه من القلاقل فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك في أن تنكيل جوهر بهؤلاء المشاغبيين والضرب على أيديهم كان مظهراً من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدهم ، حتى لا تتجدد الثورات التي كان يقوم بها الأهلون دفاعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا نرى أن جوهر أقد وضع أساساً صالحاً للسياسة التي جرى عليها الفاطميون في مصر ، فقد أخذ بالشدة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المعز على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الأولى في سنة ٣٦٣ هـ حيث احتلوا دور المصريين في عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً للنظر في أحوالهم .^(١) وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطفأت نيران الفتن التي طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم ببعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئاً ، اللهم إلا في الاحتفالات الدفنية ، كاحتفال باليوم العاشر من المحرم ، ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنه - بكر بلاه^(٢) .

(١) المقرئى : انماظ الحنقا ص ٩٦

(٢) المقرئى : نفس المصدر ص ٨٧ - ٩٤ ابن ميسر ص ٤٥

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أهم ما يرمى إليه ولاة المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية التي فتحوها، أن يؤسسوا قاعدة للحكم تسع جندهم وتأوى أنصارهم وتضم جواربها دواوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاة مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس الفسطاط ، وجاء بعده صالح بن علي العباسي فأسس هو وأبو عون مدينة المسكر ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر بنى مدينة القاهرة .

تعتبر مدينة الفسطاط أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلى الروم عنها (٥٢٠ = ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يتخذ الإسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الاسكندر المقدوني (٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايته الجديدة ، إذ كانت عامرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمرو بن الخطاب رضى الله عنه . فسأل الخليفة رسول عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » قال : نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . فكتب إلى عمرو : « إني لأحب أن تنزل بالمسلمين منزلاً يحول الماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا نجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتى حين أقدم اليكم قدمت . » وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الإسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ،

ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون حاضرة للديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع الفسطاط يقع على الطريق إلى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الإشراف على قسمي الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذ عمرو حاضرة لولايتيه .

تقع الفسطاط في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجنده عند حصاره حصن بابليون ، والذي لا يبعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة ، وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون^(١) .

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم : لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع فسطاطه^(٢) فوجد أن يمامة قد باضت فيه ، فأمر عمر بإبقائه كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوا عمرا عن المسكان الذي ينزلون فيه فقال : « الفسطاط » ، إشارة إلى فسطاطه الذي تركه لتبييض اليمامة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « الفسطاط »^(٣) .

شرح عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجنده بجوار حصن بابليون في تأسيس مدينة الفسطاط ، فاختر أول جامع بني في مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم^(٤) ثم اختطت القبائل العربية دورها

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩ .

(٢) خيمته .

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٩٦ . وقد قيل في تسمية الفسطاط أقوال

أخرى ليس هنا مجال بحثها .

Lane-Poole : The Story of Cairo, P 24

(٤)

بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت الفسطاط وبُنيت فيها المساكن ونزل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية^(١) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن علي العباسي ولاية مصر ، رأى أن الفسطاط قد ضاقت بعسكره فأسس مدينة العسكر سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠ م) في الفضاء الواقع في الشمال الشرقي لمدينة الفسطاط ، واتخذها حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم العسكر ، وكانت بالنسبة إلى الفسطاط أشبه بفرساي بالنسبة إلى باريس^(٢) . وكان موضعها يعرف في صدر الإسلام باسم الجراء القصوى ، وهو المكان الذي نزلت فيه ثلاث قبائل من العرب^(٣) عقب الفتح الإسلامي . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين فأصبح مكانها قفرا . وفي ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ، وهي تمتد من الفسطاط إلى جبل يشكر الذي بنى فوقه جامع ابن طولون .

(١) ظلت الفسطاط مركزا للحركة التجارية عامرة بالدور آهلة بالسكان حتى دخل مصر عموري Amalaric ملك بيت المقدس في سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م) فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمي العاضد الدفاع عنها : لأن المدينة لم تسكن على عهدنا الأول من القوة ، أضف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر بإحراقها وحرقها . ويقول المقرئى : « وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نפט وعشرة آلاف مشعل نار قرقت فيها ، فارتفع طب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار بمنظراً موهولاً . فاستعرت النار تأني على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً .. ومن ثم تحولات مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيجان (تلأل) مصر » . ولم يتخلف من بقايا تلك المدينة البائدة إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (الخطط : ج ١ ص ٣٣٨ —

(٣٣٩)

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 65

(٢)

(٣) بنى يشكر ، بنى روبيل ، بنى الأزرق (المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٠٤)

وهناك أقام العباسيون دورهم ، واتخذوا مساكنهم . ثم أقام صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من بعده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لا يكون أحد أبعد إليه من الآخر (١) . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاة العباسيين مسجد العسكر بجوار دار الإمارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول العسكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وأصبحت مدينة كبيرة بها الشوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وهكذا أصبحت العسكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة (١٣٢ - ٢٥٤ هـ) (٢) .

ولكن أهمية العسكر قد قلت كثيراً منذ بنى أحمد بن طولون مدينة القطائع ، فصار يذكر اسم الفسطاط والقطائع وترك اسم العسكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تكن بالأمس (٣) .

رأى أحمد بن طولون أن مدينة العسكر قد ضاقت بجنده وخدمه وعبيده ، فسار على سنة عمرو بن العاص مؤسس الفسطاط ، وصالح بن علي العباسي مؤسس العسكر ، في تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختر في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمال الفسطاط بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالعسكر لتأسيس الحاضرة

(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 91

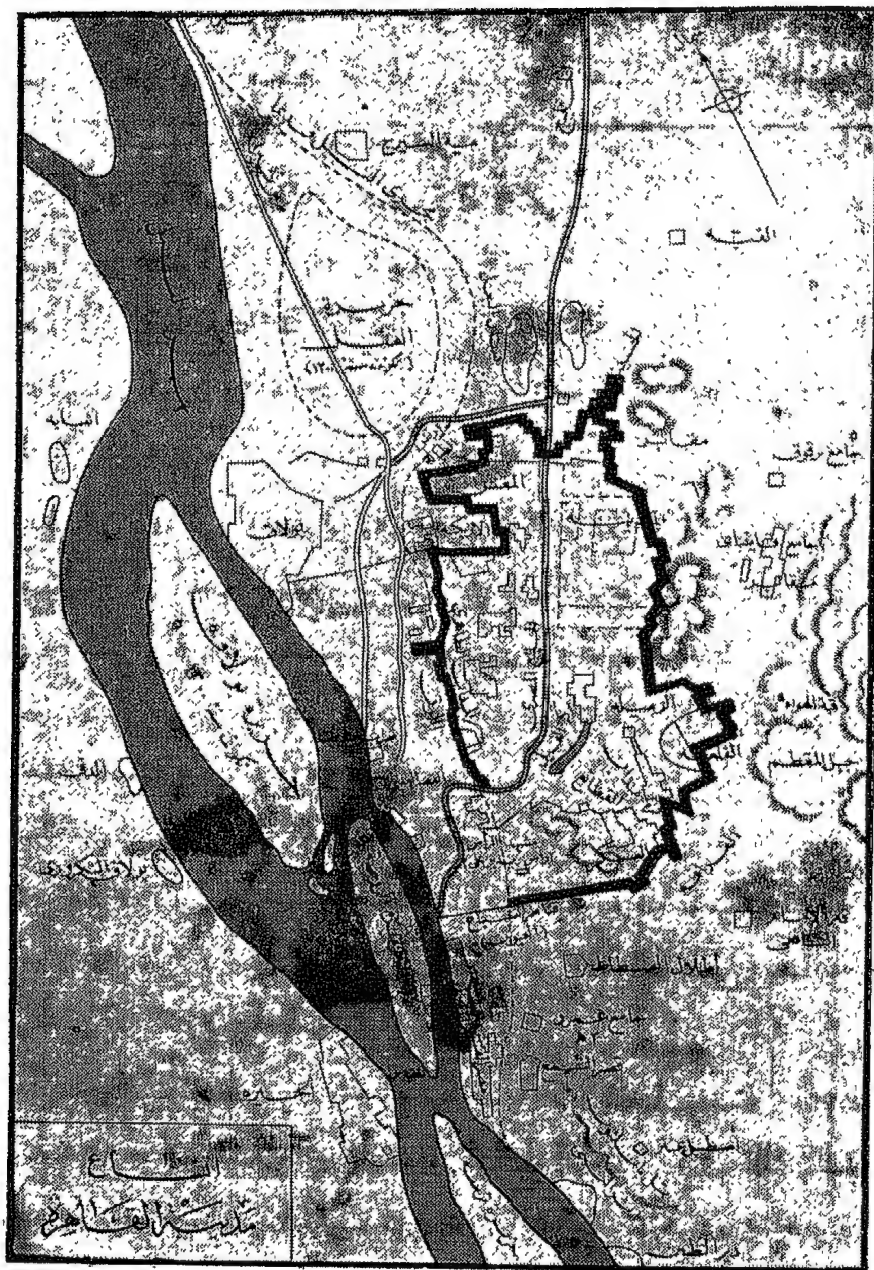
(٢) ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في العسكر ، حتى بنى جوهر الصقلي قائد المعز ، مدينة القاهرة .

(٣) تخربت مدينة العسكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك الحين . فإن بدر الجالي لما حضر إلى مصر وأخذ في تعمير القاهرة من جديد نقل إليها ما كان بالعسكر والقطائع من أنقاض المساكن ، حتى صار مكان هاتين العاصمتين موحشاً مقفراً . ولم يبق عامراً من العسكر سوى جبل العسكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون .

الجديدة التي سميت (القطائع) . ويقول المقرئزي^(١) إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطلالها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرملة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وقد قدرت مساحتها بميل في ميل^(٢) .

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة دارا يقيم فيها تحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة ، وجعل فيما بين المسجد والقصر ميذاً فسيحاً كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالصوالجة^(٣) ، وقد بلغ من الاتساع مبلغاً عظيماً حتى سمي القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال الدولة ابن طولون وقواده وغلماؤه دورهم حول ذلك الميدان ، واتخذت كل طائفة منهم قطيعة^(٤) خاصة بها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطيعة تسمى باسم الطائفة التي تسكنها ، فسميت المدينة كلها بالقطائع . ثم أخذ الناس في البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت أبنيتها بالفسطاط . وجاء بعده ابنه خمارويه فوسع القطائع وجعلها « وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله يستانا ، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر »^(٥) .

-
- (١) الخطط ج ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ و ١٢٢ .
(٢) ابن دقاق ج ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذي قدر هذه المساحة هو ابن سميد الأندلسي الذي زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .
والميل تلك الفرسخ ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .
(٣) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣١٦ . والمراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز والفرنسيين باسم « Polo » .
(٤) القطيعة : جزء من الأرض .
(٥) المقرئزي : الخطط ج ١ ص ٣١٦ .



ولما توفي خمارويه (سنة ٢٨٢ هـ و ٨٩٥ م) أخذت الدولة الطولونية في الضعف والانحلال . فبعث الخليفة الممكيني القائد العباسي المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فهزم الأسطول المصري وفر هارون بن خمارويه إلى مدينة العباسية (١) ، حيث قتله عمه شيبان وعدى ، فلم يرش الجند عن عملهما ، ورفضوا لإقرار تعيين شيبان وكاتبوا محمد بن سليمان . فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين (سنة ٢٩٢ هـ و ٩٠٤ م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثراً بعد عين (٢) .

وهكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دارسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت الفسطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فزادت مبانيها وعمرت أرجاؤها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقلي قائد جيوش المعز لدين الله الفاطمي وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) .

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) على أثر دخول جيوش المعز لدين الله الفاطمي بقيادة جوهر وقضائهما على الدولة الإخشيدية .

دخل جوهر الصقلي مدينة الفسطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (١٧ يولية سنة ٩٦٩ م) وعسكر في الفضاء الواقع شمالها . وفي تلك الليلة نفسها وضع جوهر أساس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كما وضع أساس قصر مولاه المعز (٣) وقد اختطت كل قبيلة من

(١) العباسية : بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام .

(٢) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقاق : ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 118.

Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44

البربر حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة الروم الجوانية بقرب باب النصر ^(١) .

أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للملك الفاطميين ومركزاً لشعر دهرتهم الدينية ، ويتخذها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين بدأوا يهددون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد الشام وكانت تابعة لمصر إذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لم ير الفاطميون بداً من انقضاء شرهم ورد غاراتهم ^(٢) .

ويكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ القسطنطينية أو العسكر عاصمة له وتفكيره في إنشاء عاصمة جديدة تفي بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف المنصور عند ما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمامه عواصم إسلامية عديدة يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة له . ولكنه نظر إلى المدينة فوجد لها تصاح لأن تكون حاضرة للخلافة ، فقد تغير الزمن وأصبح البون شاسعاً بين زمن النبي صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . وألغى دمشق حافلة بذكرى الأمويين ، كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هواماً مع هلى وأولاده . أما الهاشمية فكانت قريبة من الكوفة ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما بعد واقعة الراوندية . فلم يكن بد إذاً من أن يتجه المنصور شرقاً نحو غرب فارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم في عهد بنى ساسان وحيث كان أنصاره ممن قامت الدولة العباسية على أكتافهم ^(٣) .

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٤١٦ .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) المقرئى : الخطوط ج ١ ص ٤٦١ .

G. Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, (٣)
p.p. 1—6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والاسكندر من قبله . فقد رأى قسطنطين أن آئيننا لا يصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقرىها من بلاد اليونان الغربية موطن الديموقراطية وشغب مجلس السناتو ، فحول وجهه نحو الشرق مهد الاستبداد والحكم الفردي القديم ، ورأى أن موقع بيزنطة هو المكان الذي يصلح لأن يكون حاضرة للملك ، لأنه بنى بتحقيق أغراضه السياسية والدينية وأما الاسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة راقودة^(١) لبناء الاسكندرية لتكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية ، وذلك لقرىها من بلاد اليونان ووقعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول العالم القديم . هذا إلى أن اليونان كانت أمة بحرية ، ومن ثم كان من الضروري أن تتخذ حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين الذين يقيمون دولهم على أنقاض دول أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة تفي بحاجات دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة كماها بالمنصورية نسبة إلى المنصور أبي المعز ، وظلت هذه التسمية حتى قدم المعز إلى مصر فسمّاها القاهرة^(٢) . وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذه المدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق^(٣) إنها سميت بذلك لأن أساسها شق^(٤) على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر وهو كوكب

(١) راقودة أو راقوتيس : كانت قرية صغيرة بجوار موقع الاسكندرية الحالي .
المقریزی : الخطاط ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) المقریزی : انما ظ الحنفا ص ٧٣ ، الخطاط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٥ ، ابن دقاق ص ٣٥ .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٦ ص ٣٥ .

(٤) حفر

يقال له : القاهرة . . ويقول المقرئى : « إن القائد جوهر لما أراد بناءها أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقيم بها الجند ، وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن نسلهم أبداً ، فاختاروا طالعاً لوضع الأساس ، وطالعاً لحفر السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا للعمال ، إذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك . فاتفق أن غراباً وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها ، فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون القاهرة في الطالع . ففضى ذلك وفاتهم ما قصدوه . ويقال إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو قاهر الفلك ، فسموها القاهرة ، (١) .

ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المعز — على ما ذكره ابن القلانسي (٢) — كان مغرماً بعلم النجوم ، وكان يستشير منجمه في كل ما يتعلق بحياته الخاصة وفي أمور الدولة العامة . على أنه يظن لنا أن هذه الحكاية تمكاد تكون خرافة من تلك الخرافات التي يخلقها الناس ويتحدثون بها عند تخطيط عاصمة من العواصم . فقد ذكر المقرئى نفس هذه الحكاية عند كلامه على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الإسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة : لأنها تقهر من شذ عنها وحاول الخروج على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوذاً من قول المعز لجوهر عند مسيره لفتح مصر « ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا ، (٣) »

(١) الخطوط ج ١ ص ٣٧٧ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، أبو المحاسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤١ ، المقرئى :

الخطوط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القلقشندي ج ٣ ص ٣٤٩

تقع القاهرة المعزية^(١) شمال الفسطاط . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية هي حدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليلج^(٢) . وعلى ذلك فهي تحد شمالا بباب النهر ، وجنوبا بباب زويلة^(٣) ، وشرقا بباب البرقية والباب المحروق^(٤) (الدراسة الآن) ، وغربا بباب السعادة و باب الفرج و باب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية — على ما رواه المقرئى — أحياء الجامع الأزهر والجمالية والحسينية و باب الشعرية والموسكى والغورية و باب الخلق^(٥) . ويقال إن المعز لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يعجبه موقعها ، وقال « يا جوهر فانتك عمارتها ها هنا »^(٦) يريد المقس ،^(٧) .

(١) أطلق على المدينة التي بناها جوهر للمعز اسم « القاهرة المعزية » نسبة إلى الخليفة المعز (ابن خلكان ج ١ ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها و ضخامة أبوابها .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 123, 127

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte (٢)

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التي أسسها جوهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع هذين البابين هو غير الموضع الذي كانا فيه أيام جوهر

(٥) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٧٣

Lane—Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقرئى : اتعاظ الخنفا ص ٧٤

(٧) المقس : ضيعة كانت تعرف بأمر دنين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المعز مرفأً صناعياً وأنشأ بها الخليفة الحاكم جامع المقس . وكانت تسمى المكس لإقامة صاحب المكس والعشار فيها ، ثم قلبت فقبل المقس ، والمكس دراهم كانت تؤخذ من بائى السلع فى الأسواق . المقرئى : الخطط ج ٢ ص ١٢١ .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير^(١) من اللبن ، يقدر حجم اللبنة منه ذراع في ثلثي ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوانبه الخطاط إلى تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وإلى الجنوب الشرقي من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق^(٢) بعد أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر بهارتها ، وبنى بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلعة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق^(٣) .

وفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز ، في ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرقي سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقي . وكان يسمى هذا القصر أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر جوهرًا .

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى في سنة ٣٥٨ هـ في عهد القائد جوهر ، والثانية في سنة ٤٨٠ هـ في خلافة المستنصر ، والثالثة في سنة ٥٦٦ هـ في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقرئ الخطاط ج ١ ص ٣٧٧) على يد وزيره بدر الجمالي الذي هدم هذا السور وبناه بالأحجار . أبو المحاسن ج ٢ ص ٤٢٣ .

Lane—poole : Egypt in the Middle Ages P. 113 (٢)

(٣) المقرئ : الخطاط ج ١ ص ١٠٩

ببنائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه^(١) . وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر في أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميجون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة^(٢) .

وكان في ذلك القصر أبواب كثيرة ، نخص بالذكر منها : باب الذهب وتطلوه منظرية يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة متسعة تقف فيها الجنود يومى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه خان الخليلي الآن . وقد دفن المعز في هذه المقبرة جنب آباءه المهدي والقائم والمنصور التي أحضرها منه في توابع من بلاد المغرب .

وقد ظلت هذه المقبرة مدفناً للخلفاء وأولادهم ونسائهم حتى أنشأ فيها ركن الدين الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية^(٣) وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع ، التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالى الوقود^(٤) . فجلس بمنظره هذا الجامع لمشاهدة الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر في الجنوب الشرقي من القصر ، وكان يصل فيه الخليفة صلاة الجمعة . ويجوار رحبة باب العيد دار

(١) المقرئى ج ١ ص ٣٨٤

(٢) G . Migeon : Art Musulman, I. p . 42

(٣) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٤٧

(٤) ليالى الوقود : هى الليالى التي تسبق أول ومنتهى شهر رجب وشعبان . وكان الناس تبعا للتعالم الشيعية يصومون بعض هذين الشهرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بـ رمضان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين تربة الزعفران وباب الزهومة^(١) . وبين هذا الباب والجامع ، كانت خزانة القصر ومن بينها خزائن المكتب والمشتروبات والأسلحة والسكى والفرش ، وكانت تقع في الجهة الشرقية من القاهرة المعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر في اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، وأثنى بفاخر الرياش وكل ما يحتاج إليه الملوك والخلفاء^(٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرقى ، القصر الذى بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الغربى وقد بنى في موضعه المارستان الكبير المنصورى . ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين^(٣) ، وبجواره الميدان والبستان الكافورى^(٤) ودار الضيافة القديمة ورحبة الإقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرقى الكبير فضاء متسع يسع عشرة آلاف جندي ، أطلق عليه فيما بعد « بين القصرين » . وقد اختط جوهر طريقاً عاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا^(٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز في هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثلثمائة وأربعون فدانا : منها نحو سبعين فدانا بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

(١) سمي بباب الزهومة : لأنه كانت تشم منه رائحة اللحم .

(٢) المقرئى : اتعاض الخلفاء ٧٤

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٤) البستان الكافورى هو : الحديقة الغناء التى أنشأها كافور واستولى عليها

الفاطميون . وكان يقع غربى سوق النحاسين الآن .

G. Migeon : Art Musulman, t. I. p. 41

(٥) الخطط ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا للبلستان الكافورى ، ومثلها الميادين ، فيكون الباقي مائتى فدان هو الذى توزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين حارة بجانبى قصبة القاهرة . وكان سور المدينة الغربى بعيداً عن الخليج بنحو ثلاثين مقرا ، وفى سنة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمالى وخلافة المستنصر بالله الفاطمى هدم هذا السور وبنيت الأبواب من حجر ، (١) .

ولما اخطت القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا ذويلة وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستانلى لين پول (٢) أن بابى ذويلة يتكونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي « باب القوس » . وقد مر منه المعز عند قدومه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تبركاً . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه .

ويقول القلقشندى (٣) إن جوهرأ سمي بابى ذويلة بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة ذويلة ، إحدى قبائل البربر التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمالى وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب ذويلة الكبير الذى لا يزال باقياً إلى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمالى ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمالى . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابه الذى لم يبق منه سوى عقده وعضادته اليسرى (٤) . ويقول مسيو فيت : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناءها بدر

(١) ذكر الاستاذ مرجوليوث

Margolionth : Cairo, Jerusalem and Damascus

إن السور الذى أقامه بدر الجمالى قد زاد مساحة المدينة ٩٠ فدانا

Lane—Poole : The story of Cairo, p.129

(٢)

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٢ .

(٤) المقرئى : انماظ الحنفا ص ٣٨١

الجمالى تجمع بين سلامة الذوق ودقة البناء . وهى من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها ، (١) .

وكانت القاهرة فى أيام جوهر صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وكنائس الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٢) . وكان سكانها جميعاً من الشيعة . ثم ظلت تتدرج فى العمران حتى بلغت فى نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المباني الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت فيها الحدائق الغناء ، وبُنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واخترطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

بناء الجامع الأزهر:

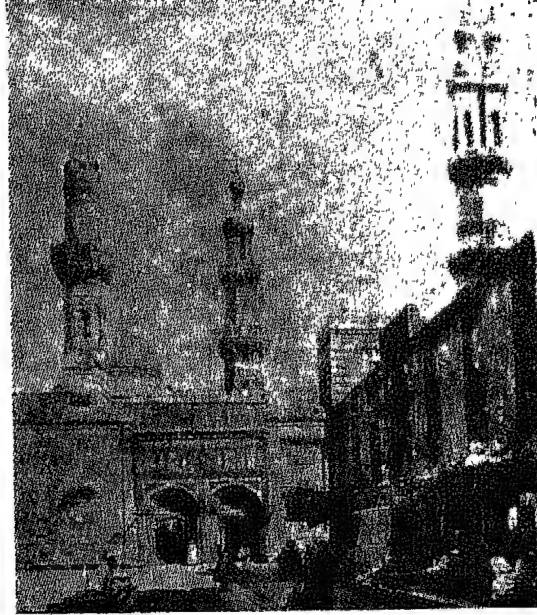
دخل الإسلام مصر فى سنة ٢٠ هـ (سنة ٦٤٠ م) ، فأخذ المسلمون فى بناء المساجد . ولم يكن الباعث على بنائها مقصوداً على الأغراض الدينية وحدها كما كان الحال فى جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانى تتخذ بعض المساجد حصوناً : فكان يراعى فى بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجنود . وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة فى مصر .

ولم تلبث هذه المساجد أن استخدمت فى الأغراض العلمية إلى جانب الأغراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte (١)
p. 36—37.

أنظر أيضاً :

Mme R. L. Devonshire : Quatre—Vingts Mosquées du Caire, p. 21.
Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 125 (٢)



الجامع الأزهر

وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر ، الذى ذاعت شهرته وأصبح مركزا لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع .

كان جامع عمرو وأقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخطيط مدينة القسطنطين . وكان أول ما توجه إليه نظره أن يبنى للمسلمين مسجداً يقيمون فيه شعائرهم الدينية ، وذلك جرياً على السياسة التى سار عليها المسلمون فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعته المشهور سنة ٦٢٨ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق ، و تاج الجوامع ، والمسجد الجامع^(١) . ويقع شمالى حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ٥٩

وقت الفتح الاسلامى . وأول من زاد فى هذا الجامع مسلمة بن مخلد الأفصارى (٤٧ — ٦٢ هـ) وإلى مصر من قبل معاوية ، فزخرف سقفه وجدرانه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولي عبد العزيز بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، هدم هذا الجامع وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته^(١) ، فظل المسجد عامرا يؤمه الناس للصلاة فى كل يوم . ويقول ستانلى لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرسون على إقامة صلاة الجمعة القيمة به إلى اليوم^(٢) . ولم يبق من البناء الأصيل شئ الآن ، فقد بناه عمرو بالين . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد فى مصر^(٣) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين أسس صالح بن على مدينة العسكر . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد العسكر فقدا من المسجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجوار دار الإمارة وسط هذه المدينة . ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر وإلى مصر من قبل المأمون وظل قائماً فى مكانه حتى خربت المدينة كلها ونقل أنقاضها أمير الجيوش بدر الجبالى وزير الخليفة المستنصر بالله الفاطمى^(٤) إلى مدينة القاهرة لتعميرها .

ثم جاءت الدولة الطولونية فبنى أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ مسجده المعروف باسمه على جبل يشكر فى الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة الشمالية من العسكر . ويقال أن الذى دغاه إلى بنائه هو ضيق مسجد العسكر بالمصلين لكثرة جند أحمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب إلى

(١) المقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٤٦

(٢) Lanc—Poole : The Story of Cairo p. 44

(٣) Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du Cairo, p. 10

(٤) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٦٤ — ٢٦٥

الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدده المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباي اختفى في ذلك الجامع ونذر أن يعمره إذا من الله عليه بالخلاص . وقد وفى بنذره فاهتم بعماراته وأعادته إلى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه^(١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأول^(٢) . فقد سقطت مباني مدينة القطائع وزالت معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي إلى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب في بقاء هذا الجامع حتى اليوم إلى استعمال الجير والرماد والآجر الأحمر القوي النار في بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد في البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن أبنى بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي^(٣) » .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة ، في نفس الليلة التي دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) ، لتكون أشبه بمدينة حصينة ومعقل له ولجنده وأنصاره من المغاربة ولتقيقه شر القرامطة . وكان المذهب السني في ذلك الوقت منتشرأ في مصر ، ولم ير جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يفاجئ السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . فخص بها بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » التي كان يذكرها الفاطميون في الخطبة ، حتى لا يثير جوهر حفيظة المهريين .

لذلك عول جوهر على تلافي الشر قبل وقوده . فبنى مسجدا يتلقى فيه

(١) ابن دقاق : الانتصار ج ٤ ص ٢٢١ - ١٢٤

(٢) ابن دقاق : نفس الجزء والصفحة

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧

الناس عقائد المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء الجامع الأزهر في يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ و ٢٢ يونية سنة ٩٧٢ م)^(١) .

كان الأزهر أول مسجد شيد في مدينة القاهرة المعزية وأشهر جامع في العالم الإسلامي ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه^(٢) .

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولذا سمي بالأزهر . وقال آخرون إنه سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التي تتبع المساجد عادة من منارات ومناطس وغيرها . وقد بنى فيه القائد جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون في صفوف متعاضدة . وفي سنة ١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كيتخدا مقصورة ثانية بها خمسون

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٣ ، القلشندى : ج ٣ ص ٣٦٤ .

Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٢) Mme R. T. Devonshire : Quatre—vingts Mosquées du Caire, p. 11. G Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

عمودا من الرخام . وبذلك أصبح بهذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد ، الأعمدة الموضوعة بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترفع المقصورة الجديدة نصف ذراع عن التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما صحن الجامع ، فهو مكان متسع غير مسقف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء للتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر . ويقومون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع بيواناتك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل (١) .

وقد أنشأ القائد جوهر بهذا الجامع محراباً بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة ، أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

وللجامع منبر واحد ، وهو من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصلي الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشئ بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتي ، ووظيفته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يتبع أذان المنارات الأخرى بالقاهرة أذان الأزهر . وكان

الميتقات يعرف الأوقات بالنظر في المزالة التي لاتزال قائمة إلى اليوم بأحد
جدران صحن الأزهر .

وكان المعز يذهب إلى الجامع الأزهر في يوم الجمعة في موكب حافل لإقامة
الصلاة . وقد سار على هذه السنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد المعز . وقد
ذكر المقرئ أن الخليفة العزيز الفاطمي هو أول من حوّل الأزهر من مسجد
تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق
على طلاب العلم فيه وبنى لهم المساكن للإقامة فيها^(١) .

(١) الخطط ج ١ ص ٢٧٢

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

قدوم المعز إلى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلسكان (٢) إن جوهر أطلب إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولى شئونها ، بعد أن رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرهما . فلما وجد المعز أن دعائم ملكه قد توطدت في الشرق ، هزم على الرحيل إلى مصر .

خرج المعز من المنصورة يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع إليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلسكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية (الأربعاء ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ وسبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل إفريقية بطاعته والائتمار بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل في طريقه حتى وصل إلى برقة ومنها إلى مصر .

وقد دخل المعز الأسكندرية ، ثم تطجواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ و ١٩ مايو سنة ٩٧٣ م) ، في جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده

(١) ابن خلسكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠

(٢) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٢

(٣) ابن خلسكان ج ٢ ص ١٠٨

وأخوته وأعمامه ، ومعه جيش آباءه المهدي والقائم والمنصور^(١) . فاستقبله أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضي مصر ، فجلس المعز عند المنارة وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها ، أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا مال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يختم عمره بالأعمال الصالحة ، وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم وأطال في الوعظ حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضي وبعض من كان معه ، ثم انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه^(٢) .

رحل المعز من الإسكندرية في أواخر شعبان سنة ٣٦٢ هـ ووصل إلى الجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقائه وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات . وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلالها في العبور بامتعتهم إلى ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ عبر المعز النيل ودخل القاهرة دون أن يمر على القسطنطين ، وكان الأهليون قد زينوها له بالزيينات الباهرة ظناً منهم أنه سيبدأ بدخولها ، بينما يستعد أهل القاهرة للقاءه^(٣) .

ولما وصل المعز إلى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٣٦٢ هـ) ، دخل القصر الذي بناه له جوهر ، ونحر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين في إحدى ردهانه ، وصلى خلفه من كان معه ، وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة^(٤) ، وغدت القاهرة - بدل القيروان -

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Égypte p. 33 (١)

G. Wiet : Art Musulman, t. I, p. 41

(٢) ابن خلدون ج ٢ ص ١٠٢

G. Migeon : Art Musulman, t. p. 41

(٣)

(٤) المقرئى : انماظ الخنفا ص ٨٩

مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من المهدية إلى القاهرة قد أفقد الفاطميين إفريقية (تونس) ^(١) . فإن بـلـكـين شيخ صنهاجة من قبائل البربر سرعان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٣٦٢ هـ . وحذا حذوه في ذلك الحماديون في سنة ٣٩٨ هـ . وفي عهد المستنصر ثم استقلال أمراء شمال إفريقية (سنة ٤٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائياً عن سلطان الفاطميين ^(٢) .

أقام مع المعز في القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج إليه الملوك من مال وعين ^(٣) وجوهر وحلى وفرش وأوان وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم في ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئاً من أثاث القصر إلا ما كان عليه من الثياب ، ونزل في داره بالقاهرة ^(٤) . وفي اليوم التالي لوصول المعز خرج أشرف مصر وقضايتها وعلماؤها وجوهرها لتمنيته والاحتفال برصوله .

جلس المعز في قصره في الخامس عشر من شهر رمضان على السرير الذهب الذي صنعه له جوهر في الإيوان الجديد . ثم أذن المعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوماً بعد قوم ^(٥) ثم قدم جوهر هديته إلى مولاه المعز . وكانت — على ما ذكره المقرئ بنى نقلا عن ابن زولاق — مائة وخمسين فرساً مسرجة ملجمة ، وكان من تلك السروج واللجم ، ما هر موشى بالذهب

(١) Lane—Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

(٢) Lane—Poole : op. Cit, p. 39

(٣) العين : مشترك لفظي يطلق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا النقود وكذا الدنانير المضروبة والغير المضروبة .

(٤) ابن نخلكان . ج ١ ص ١٢٠

(٥) المقرئ بنى : أتعاض الخنفا ص ٩٠ — ٩١

وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بخاتي^(١) بالديباج^(٢) والمناطق^(٣) والفرش ، ومنها تسع نوق محملة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بغلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بغلة للنقل ، وتسعون نجيبا^(٤) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف محلى بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخرقة فيها جوهر ، وشاسية مرصعة في غلاف ، وتسعمائة سبط ، وتخت^(٥) ، فيها الطرف وكل ما أعده جوهر لمولاه المعز من ذخائر مصر^(٦) .

ولما فرغ جوهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيد الله الحسيني وقدم هديته إلى المعز وهي أحد عشر سبطاً من متاع تونة^(٧) وتنيس^(٨) ودمياط^(٩) ،

(١) البخت : نوع من الإبل .

(٢) الديباج : ثوب سداه ولحمته إبرسيم (حرير) ويقال هو معرب . ثم كثر حتى اشتقت العرب منه .

(٣) المناطق : جمع منطاق وهو ما يشد به الوسط .

(٤) النجيب : هو السكريم (الأصيل) من الجيل .

(٥) تخت : وعاء

(٦) المقریزی : الخطاط ج ١ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : التعاظ الحنفا ص ٩١ ،

G. Migeon : Art Musulman I. p. 42

(٧) تونة : جزيرة قرب تنيس ودمياط .

(٨) تنيس : جزيرة بين الفرما ودمياط .

(٩) اشتهرت هذه المدن في ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كان لها شهرة عالمية في ذلك المضمار . فقد كان يضرب المثل بثياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة السكينة أحياناً . كما اشتهر أهل تنيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثل ، وأهل دمياط بصناعة الأقنعة القلونية التي أخذت صناعتهما عن بلاد اليونان ، وهي نوع من القماش ذو ألوان براقه تتلألأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ؛ وقد ذكر ياقوت عند كلامه على دمياط وتنيس أن حاككة الثياب الرفيعة =

وخيل وبغال . وقال : دكنت أشتى أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً أو يتمم بالعمامة التي فيها ، فاعمل للخليفة قط مثلها ، (١) .

وبعد أن تقبل المعز ما قدم اليه من الهدايا والتحف أذن لجماعة المهنتين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الآلاف .

وفي عيد الفطر ، ركب المعز إلى مصلى القاهرة الذى بناه جوهر ، فأقبل عليه في موكب ، وجلس خلفه من الجمة البني أبو جعفر مسلم العلوى وصلى المعز بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ في الركعة الأولى أم الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضى النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ في الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهى صلاة جده على ابن أبى طالب . وأطال الركوع والسجود فى الثانية أيضاً . قال ابن زولاق : قد سبحت خلفه فى كل ركعة وسجدة نيماً وثلاثين تسبيحة . وجهر المعز بيسم الله الرحمن الرحيم ، فى كل سورة . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر وعمار بن جعفر وشفيع صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ فى خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف فى عساكره (٢) . ولما وصل إلى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه عنه صيام العيد .

وقد خلع المعز على جوهر فى ذلك العيد خلعة مذهبية ، وعمامة وقائده

== بهما كانوا من القبط ، وأن أهل دمياط كانوا يستأجرون غرافاً فى قبوات على خليج دمياط لعمل الثياب المعروفة بالشرب .

(١) المقرئى : أعاظ الحنفيا ص ٩١

(٢) المقرئى : أعاظ الحنفيا ص ١٩

سيفاً كما قدم إليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منح المعز جوهرأ هذه الهدية إعجاباً بما أصابه من النجاح في فتوحه وتقديراً لما قدمه إليه جوهرأ من تلك الهدية الثمينة التي أتينا على وصفها .

ولما فرغ المعز من الاحتفال بعيد الفطر ، ركب إلى المقدس ، وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوذه ، وخلف عليه جوهرأ والقاضي النعمان ، ثم عاد إلى قصره (١) . ومن هنا تدبّر أن جوهرأ كان لا يزال يتمتع في ذلك الوقت بشيء من النفوذ الذي كان يتمتع به قبل وصول المعز إلى مصر .

* * *

ظلت مقاليد الأمور في مصر بيد جوهر حتى قدم المعز في سنة ٥٣٦٢ هـ . وقد استأثر المعز بكل ما كان يتمتع به جرهر من النفوذ . على أن جوهرأ قد بقي بجانب المعز يدلّه على أحوال البلاد ويشير عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المعز قد حفظ لذلك الفاتح العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وتثبيت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصد غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التي كادت تقضي على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المعز — على الرغم مما حبا به جوهر من العطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجواري والأحباس

(١) المقرئى : اتعاط الحنفى ص ٩١

والمواريث والشرطتين وغيرها ، وقلدها يعقوب بن كاس وعسلوج ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهرأ يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم يعد إلى الظهور إلا أواخر سنة ٣٦٤ هـ ، حين تفاقم خطر أفتكبن والحسن ابن أحمد القرمطى واستعصى على المعز وقواد جيشه كبح جماحهما ، فلجأ إلى جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر في تلك المدة أقل إخلاصاً وولاء لمولاه المعز ثم لابنه العزيز من بعده عما كان عليه من قبل ، وكان ذلك آخر عهد جوهر بالشئون العامة في مصر .

وهنا نتساءل عن السبب في موقف المعز إزاء هذا القائد العظيم والفتاح الكبير وإقصائه إياه عن المناصب الهامة في تلك البلاد التي تم فتحها على يده . ولعل المعز قد سلك مع جوهر ماسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء وقوادهم من مؤسسي الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه على نفوذهم أن ينتقل إلى هؤلاء . وإن تعوزنا المثل للتدليل على صحة هذا القول : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قامت على أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فلك عبيد الله المهدي بأبي عبد الله الشيعي بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد المغرب . على أن جوهرأ — وإن جازاه المعز على فتوحه جزاء سنهار — فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد الفاتحين ، كأبي مسلم وأبي عبد الله الشيعي .

نصيب سلطان الفاطميين في سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر أفتكبن والقرامطة في الشام واستعصى أمرهما على الخليفة المعز ، والآن نبين كيف تم القضاء على أفتكبن والحسن زعيم القرامطة ، وكيف عادت بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين .

توفي المعز في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه العزيز . فسكتب إلى أفتسكين يستميله إليه ويعدده حسن المكافأة إذا جلا عن دمشق . فرد عليه أفتسكين برد جاف جاء فيه : « هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً » (١)

وقد استاء العزيز من ذلك السكتاب ، وحنق على أفتسكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يزحف على دمشق ويهاجم أفتسكين لإخراجه منها عنوة . فوجد العزيز في جوهر رجل الساعة الذي يعتمد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وتثبيت الفتح الفاطمي بها ، كما اعتمد عليه المعز في فتح مصر بعد أن استعصى على غيره من الخلفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن العزيز به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتسكين والقرامطة فلما علم القرامطة بذلك وهم في الرملة فروا إلى الأحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتسكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استنار حماس أهل دمشق بتلك الخطبة التي نلقاها عن ابن القلانسي (١) : « وقد علمتم أنني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا عن رأيكم ومراكم ، وقد طلبني من هذا السلطان ما لا طاقة لي به . وأنا منه صرف عنكم وداخل إلى بلاد الروم ، وعامل على طلب موضع أكون فيه ، واستمدما أحتاج إليه منه ، لئلا يلحقكم بقتل من يقصدكم ما يشغل به الوطأة عليكم ، وتصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتسكين قد أفلح في سياسته ، فقد جدد أهل الشام ثقتهم به ، يدل على ذلك ما جاء في ردهم على خطبته من تلك العبارة : « أما اخترناك

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٥ — ١٦

لسياسةنا ورياستنا ، على أن نمكنك من تركنا ومفارقةنا أو تألون جهداً من نفوسنا ومساعدتنا ؟ دونك وبين يديك في المدافعة عنك .

وكان بيد جوهر أمان من مولاة العزيز لأفتسكين ، وخاتماً ، ودستاً من ثيابه ، وكتاباً بالعفو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفتسكين في لين ورفق ، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعد له من الهدايا ، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمان إلى نصابه . فكتب إليه أفتسكين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز ، واعتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه . ثم سار أفتسكين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستعد للقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبيثينة ، ثم دخل دمشق وتمحصن فيها .

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذى الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سوراً يضم عسكره وحفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفتسكين الجند للقتال ، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها الدائرة على أفتسكين في ٢١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ رغم ما أبداه من شجاعة نادرة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي يطلب منه السير إليه ومعاونته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفتسكين وسار إلى دمشق ، ولا شك أن جوهر لم يفسد مصير جعفر في حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ . فطلب جوهر الصلح على أن يخلو عن دمشق ، ولا سيما حين رأى أن موارده قد انضبت وأن المؤونة قد أعوزته ، وهلك معظم جنده . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة ونفوذهم ونظامهم في الحروب ، حتى إن مجرد نبأ سيرهم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر وإسراعه إلى طلب الصلح .

أجاب أفتسكين جوهر إلى طلبه . فرحل هذا من دمشق في ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ ، وجد في المسير لاقتراب القرامطة منها ، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعيم القرامطة سار إليه بعد أن رحل

جرهر عنها إلى الرملة . فبعث الحسن سرية لقتاله ووقعت بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتسكين لقتال جوهر^(١) . وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ، وكان المورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهر أن أفتسكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا ماء الأمطار التي يجمعها في الصحاريح بما لا يكفي جنده السكثيف ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتسكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى عسقلان إذا دعت الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدج جوهر إليها ووصل في آخر الليل . فتبعه أفتسكين والحسن القرمطي ، وحاصراه فيها ، حتى ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن إلى جوهر في البحر ، واشتدت الحال حتى أكل المغاربة الدواب الميتة ، وابتاعوا الخبز كل خمسة أرطال شامية بدينار معزى^(٢) .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهر وبعد نظره الفضل في الخلاص من هذا المأزق الحرج ، في الوقت الذي كادت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتسكين

(١) ذكر المقرئى : (الخطط ج ٢ ص ٩) أن الحسن القرمطي توفي بالرملة سنة ٣٦٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعد ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتسكين والقرامطة . بينما يقول ابن القلانسي إن الحسن ظل يناصب الفاطميين العداء ويشير القلاقل والفتن في سورية حتى سنة ٣٦٨ هـ ، حيث هرب من ميدان القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن القلانسي ، فقد نصب نفسه لجمع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان ، هذا إلى أنه قد سبق المقرئى بنحو ثلاثة قرون ، فقد توفي سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفي المقرئى سنة ٨٤٥ هـ

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ — ١٧ .

والحسن القرمطى . فقد عمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين والذى كان الغرض الأول منه القضاء على سلطان الفاطميين فى بلاد الشام واتزاعها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل باللين والدهاء ما عجز عن الوصول إليه عن طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأيناه يكتب إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الوئام والصفاء محل المشاحنة والبغضاء ، ثم يبحث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع رأينا جوهرأ يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدهاء والحزم . وقد مهر جوهر فى هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى أفتكين من ناحية الدين وطالب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل فى الوقت نفسه على التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطى . حتى إذا ما نجح ببعض النجاح فى فهم عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع فى النهاية أن يقضى عليهما جميعا .

وقد ذكر ابن القلانسى^(١) أن جوهرأ قال لأفتكين حين اجتمع به : قد علمت ما يجمعنى وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريقتم فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والمودعة والدخول فى السلم والطاعة ، وبذات لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القبول من يشب نار الفتنة ويستقر هناك وجه النصيحة . فراقب الله تعالى وراجع نفسك ، وطلب رأيك على هوى غيرك . فأجابه أفتكين : أنا والله واثق بك وبصحة الرأى والمشورة منك . لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه دعى ، . فرد جوهر عليه : إذا كان الرأى والأمر على ذلك ، فإنى أصدقك على أمرى ،

تمويلا على الأمانة ولما أجده من الفتوة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، أن تمن عليّ بنفسى وبهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتذم لى لأمضى وأعـود إلى صاحبي شاكرآ . وتكون قد جمعت بين حقن الدماء واصطناع المعروف ، وعقدت عليّ وعلى صاحبي منة تحسن الأحدوثة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها . فقال أفتكين : دافعـل وأمن على أن أعلق سيفى وريح الحسن بن أحمد على باب عسقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها . فرضى جوهر بذلك وتعاهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . واقترب القائدان ، فعاد أفتكين إلى مسكره ، ورجع جوهر إلى عسقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والطرف .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطى يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن إليه وقال له : لقد أخطأت فيما فعلته وبذلته . وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استتلك بما عقده معك . وسيرجع إلى صاحبه ويحمله على تصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فياخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هر وأصحابه جوعا ، ونأخذهم بالسيف . فتمسك أفتكين بما عاهد جوهرأ عليه وقال : قد عاهدته وحلفت له ، وما استعجز الغدر به . وقد علق السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتها (١) .

ولاشك أن جوهرأ لم يكن يجهل المثل المأثور والغاية تبرر الوسطة ، فقد رضى أن يمر هو وجنده تحت سيف أفتكين وريح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شئ غير قليل من المذلة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الفاطميين . بيد أن جوهرأ كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً . على أن جوهرأ إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتتحت الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى يغفل عن هذه

الحقيقة حين أخبره أفتسكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التي تنبئها من قول القرمطي : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استتلك بما عقده معك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال في بلاد الشام . واستفحال أمر أفتسكين ومن معه . فقال له : « ما الرأى ؟ » قال : « إن كنت تريد ، فأخرج بنفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على إثرى ، فأمر العزيز بإعداد العدة ، وأخرج على رأس جيش كبير مزود بالمؤن والذخائر وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتسكين والحسن القرمطي بما عقد العزيز العزم عليه ، عادا إلى الرملة حيث تلاقي الجيشان ، وحمل وطيس القتال (١) ، « وجال أفتسكين بين الصفين يكر ويحمل يطعن ويضرب » . فقال العزيز لجوهر : « أرني أفتسكين » فأشار إليه « وهو يطعن تارة بالرمح ويضرب أخرى بالسيف ، والناس يتحامونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلا من عنده يقال له نميرة ، وقال له : قل « يا أفتسكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي ، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مساعدك بجميع ذلك ، وصافح لك عنه ، فترك ما أنت عليه ولذ بالعفو منى . فلك عهد الله وميثاقه ، أنى أو منك وأصطفيك ، وأنوه باسمك . . . وأهب لك الشام وأتركه في يدك ، (٢) .

معنى نميرة إلى أفتسكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتسكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مرارا ومرغ خديه عليها معفرا وقال : « قل

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٨١

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك اسارعت إليه ، وأطعت أمرك ، فأما الآن فليس إلا ما ترى ، . وعاد نميرة ونقل إلى العزيز ما سمع ، فقال له : « إرجع إلية وقل له يقرب منى بحيث أراه ويرانى . فإن استحققت أن يضرب بالسيف فليفعل ، . فضى نميرة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذى أشاهد طلحة أمير المؤمنين وأنا بهذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدي ، . ثم حمل على ميسرة الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بعيني رأسه فحمل بميمنة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم أفتسكين والقرمطى فى يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٣٦٧ هـ وأعمل السيف فى جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطى هارباً راضياً من الغنيمة بالإياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية . وفر أفتسكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن بذل العزيز لمن يحى به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يشهر به فطيف على جمل « فأخذ الناس يلطمون وجهه ، ويهزون لحيته ، حتى رأى فى نفسه العبر ، .

وسار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فأحسن الخليفة إليهم ، وأمنهم وكساهم ، وأسند إليهم الأعمال التى كانوا يلونها أيام أفتسكين . أما أفتسكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد فى أنه مقتول لا محالة .

وهنا ظهرت صفات العزيز النادرة ، وحببه للعفو عند المقدرة مع رجل دوخ الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهى فى عنفوان قوتها وكامل فتوتها . على أنه كان لجوهر أثر كبير فى ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتسكين به وبجنده ، فطالما عمل على تلطيف مزاج مولاه العزيز وتمدته نفسه الشائرة

ضد ذلك العدو الذي أفلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

ويحدثنا ابن القلانسي أن أفتسكين لما دخل على العزيز في سرادقه ترجل هن دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتسكين . إزاء الحفاوة به وبرجاله ، إلا أن رمى بنفسه إلى الأرض وألقى ما على رأسه وبكى بكاء شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال : « ما استحققت الإبقاء على ، فضلاً عن العفو الكريم والإحسان الجسيم ... » وامتنع من الجلوس في الدست وقعد بين يدي العزيز . وقد ألبسه جوهر على إثر وصوله من ملابس العزيز وهذا روعه . فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهر أ على ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز في إكرام أفتسكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وعطاياه ، وظل أفتسكين ممتعاً بنعم العزيز حتى مات في سنة ٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسم لرفع أفتسكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حينئذ منه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استقل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

تقدير جوهر

إلى هنا انتهى بنا البحث في حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسي الخطير . وقد اختلف علماء الاجتماع في عظماء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى أن الرجل العظيم هو الذى يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضى فى الطريق الذى يشقه لها ، ومنهم من يرى أن الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلق الأيام وتنشئه الحوادث وتبني له من الفرص ما لا ينهى غيره وتخلع عليه من مظاهر العظمة ما تضن به على سواه .

وقد اجتمع فى جوهر الرايان جميعاً . فإننا لو نظرنا نظرة إجمالية إلى حياة هذا القائد ، رأينا أن عناصر عظمته هى مزيج من الحظ المواتى والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو فقد كان لجوهر من المواهب ، التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موفقاً وسياسياً حكيماً . إلا أن هذا وحده لا يكتفى . لو لم تتم له الظروف الاتصال بالمعز وهو لا يزال ببلاد المغرب ، فيوليه ثقته ويوليه إمرة جنده وقيادة جيشه لإتمام فتح ما بقى من بلاد المغرب وإخضاعها لسلطان الفاطميين . وهذا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيمته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المعز فى أقل من سنة . وهكذا تكاثفت ظروف الرجل ومواهبه فى وضع الحجر الأساسى لمجده .

ولم تقف ثقة المعز بجوهر عند هذا الحد ، فقد جعله على رأس الحملة التى وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالمشرق ، بعد أن فشل فى ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر فى مصر لم يكن أقل منه فى بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والانحلال عجزت معها عن إرسال الجنود لصد الأعداء عنها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المعز على حقيقة الحال في مصر وما كانت عليه من ضعف ، فقد رأى أن فتحها يحتاج إلى عقل راجح وقيادة حكيمة . فاختر جوهرأ بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً تفتح له البلدان المنيعه في بلاد المغرب أبوابها . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، فتم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحسن سياسته أثر كبير في استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهاليين بالرغم من بغضهم للمذهب الشيعي ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التي كانت ترمي إلى اتخاذ مصر جسراً يعبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المعز جوهرأ لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فإن سلطة الفاطميين لم تتوطد في بلاد الشام وفلسطين حتى خرج إليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق في ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريعاً في ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التي امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرأ ، ففضى على القرامطة وردم عن مصر مهزومين مدحورين ، وطالما ناقوا للإغارة عليها وفتحها كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لثم للقرامطة ما أرادوا وأزالوا سلطان الفاطميين في مصر ، ولما تثبت دعائمها فيها .

لا زالت آثار جوهر في مصر تنطق بأيادي القائد العظيم والفتاح الكبير فهو منشئ القاهرة ، تلك العاصمة التي لم تلبث أن بذت غيرها من العواصم الإسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الإسلامية التي انبسط نورها على الآفاق ، فقد فاقت القاهرة بغداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة الأندلس في الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، ومحط رحال الشعراء والكتاب . ناهيك ما ذكره ناصري خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي طاف بجميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ما وصلت إليه

من المدينة والحضارة ووقف على ما بلغته من العلم والفن ، فقد قال في كتابه :
« سفر نامه » ، إن القاهرة قد سبقت في عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا في كل
ناحية من نواحي الحياة .

وبما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه في السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل
الشدة والعنف في نشر المذهب الفاطمي وإنما لجأ إلى الوسائل السلمية . فاعتمد
على المساجد التي اتخذها أشبه بمدارس يتلقى فيها الأهلالي تعاليم هذا المذهب ،
دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً
لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي حتى لا يضايق المهرابين السنين في شعورهم
الديني في المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا
الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا أن الناس كانوا يساقون لتلقي
تعاليم هذا المذهب كرهاً . بيد أن هذا التسامح لم يصرف جوهرأ عن الغرض
الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ
في جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك بإسناد مناصب الدولة الهامة إلى
معتنقي هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس للمظالم بنفسه ،
فيقضي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي
المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من خاصته وخلصائه . فقد
ضرب على أيدي الجند المغاربة ومنهم من التحدى على الأهلين ، حتى كان
يعاقب المعتدين منهم بالقتل جزاء لهم وردعا لغيرهم . فكان مثله في ذلك مثل
عمرو بن العاص وأحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد وصالح الدين
الأيوبي وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم في مصر
في العصر الإسلامي .

ولا شك أن جوهرأ يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية في مصر خاصة
والشرق هامة . وكان مولاه المعز يشق به ثقة لآحد لها . فقد ترك له ولاية

مهر أربع سنوات لم يفكر خلالها في الحضور إليها وتسلم مقابلته الحكم فيها حتى ألح عليه جوهر في ذلك، مما يدل على أن المعز كان يرى في جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضائل أثر قدوم المعز إلى مصر ، فأفل نجمه ودالت دولته وهذا أمر طبيعي : فقد عرف المصريون جوهر أ وأحبوه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شخصية بارزة ونفوذ قوى . فلو أشركه معه المعز في حكم هذه البلاد لسقطت هيبة الخليفة الفاطمي وتلاشى سلطانه . لذلك لا نعجب إذا صرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول المعز ، فلم يعد إلى الظهور إلا في فتوح سورية في عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكين . وكان ذلك في آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فإنه بعد أن وطئ سلطان الفاطميين في سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٦٨ هـ ، أهمله العزيز كما أهمله المعز من قبل ، فلزم داره وأصبح نسيا منسيا .

وقد أحفظ جوهر إهمال المعز والعزيز له ونال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادي في توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقرئى (١) أن منجوتكين (٢) التركي خرج من قاهر العزيز سنة ٣٨١ وهو عتق جواده ، وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة . وكانت يد جوهر في يد ابن عمار . فتمهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق

(١) الخطط ج ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أبا عمار أنه لما وصل المعز إلى مصر عرض عليه الأسرى . وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لا يزال غلاماً . فلما رآه المعز نظر إليه وتأمله ، فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للمعز « يا مولانا لقد فعلت لما رأيت هذا التركي ما لم تفعله مع من تقدمه » . فقال « يا جوهر ! سوف ترى أن يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تتم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أظن أن ذاك الغلام هو الذى كان يعنيه مولانا المعز »

لما صدره وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، فنزع جوهر يده منه وقال :
« قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لكل زمان دولة
ورجال » . أنريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجل لى ، ولأما
الممن لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ،
فتمعجب الناس من ذلك . وما أنا اليوم أمشى راجلا بين يدي منجوتكين .
أعزونا وأعزوا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجلى وموتى ، فقد
أنفت على الثمانين .

وفى تلك السنة اعتل جوهر فعاده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف
دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٣٨١ هـ . فبعث إليه
بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة
بعد أبيه وتلقب بالحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) . وكفن جوهر فى
سبعين ثوبا ما بين مثقل وموثى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن
بالقرافة الكبرى ، على ما ذهب إليه ابن إياس^(١) . وخلع العزيز على ابنه الحسين

(١) ج ١ ص ٥١

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره
من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه « السكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » ، والسجاري
فى كتابه « نخفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطوط والمزارات والتراجم والبقاع
المباركات » ، وهما من أهم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن
التي دفن بها مشاهير رجال التاريخ وكذلك المقرئى الذى عفى باستقصاء كل ما يتعلق
بالفاطميين وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية .

أما المقبرة التى كانت بالجهة الشمالية للأزهر إلى وقت قريب ، والتى يزعم بعض الناس
أن جوهر أ الصقل دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر القنقياى من أمراء المماليك ، وإليه
تنسب مدرسة الجوهريّة (الخطوط التوفيقية : ج ٤ ص ٢٠ نقل عن الضوء اللامع للسجاري)

ابن جوهر وجملة في رتبة أبيه ، ولقبه بالقائد بن القائد ، وممكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل عطف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والإنشاء سنة ٥٣٨٦ (سنة ٩٩٠) ورد إليه النظر في أمور الرعية وتدبير أمور الدولة^(١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . واقد كان جوهر عاقلاً عادلاً ، محسناً إلى الناس . لهذا لا نعجب إذا حزنوا لوفاته . فرائه الشعراء على اختلاف مذاهم وعقائدهم حتى لم يبق بمصر شاعر إلا رثاه وشاد بأدبه الجم ، وعلمه الغزير ، وشخصيته الكبيرة ، وصفاته العالية ، ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهر أ فإن مثله في الرجال قليل .

(١) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ١٤ - ١٥ .

الباب السادس

دولة الفاطميين

التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

(١) خلفاء العصر الفاطمي الأول (٣٦٢ - ٤٨٧ هـ):

ظل جوهر الصقلي يحكم بنفسه منذ أن تم له فتحها عام ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها الممن سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) فاستأثر بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ وأخذ يعمل منذ تقلده زمام الخلافة على تنمية موارد الثروة واهتم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في مصر وغيرها من البلاد وأنشأ اسطولا عظيما لم ير مثله ، ومات بعد وصوله إلى مصر بقليل .

وولى الخلافة بعد الممن ابنه العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) وهو في الثانية والعشرين في عمره وكان قد قدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة . وما كاد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين اللتين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين . وتم له ما أراد وتوطد سلطان الفاطميين في سورية وأصبحت تلك البلاد ولاية فاطمية ، حاضرتها دمشق ، وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

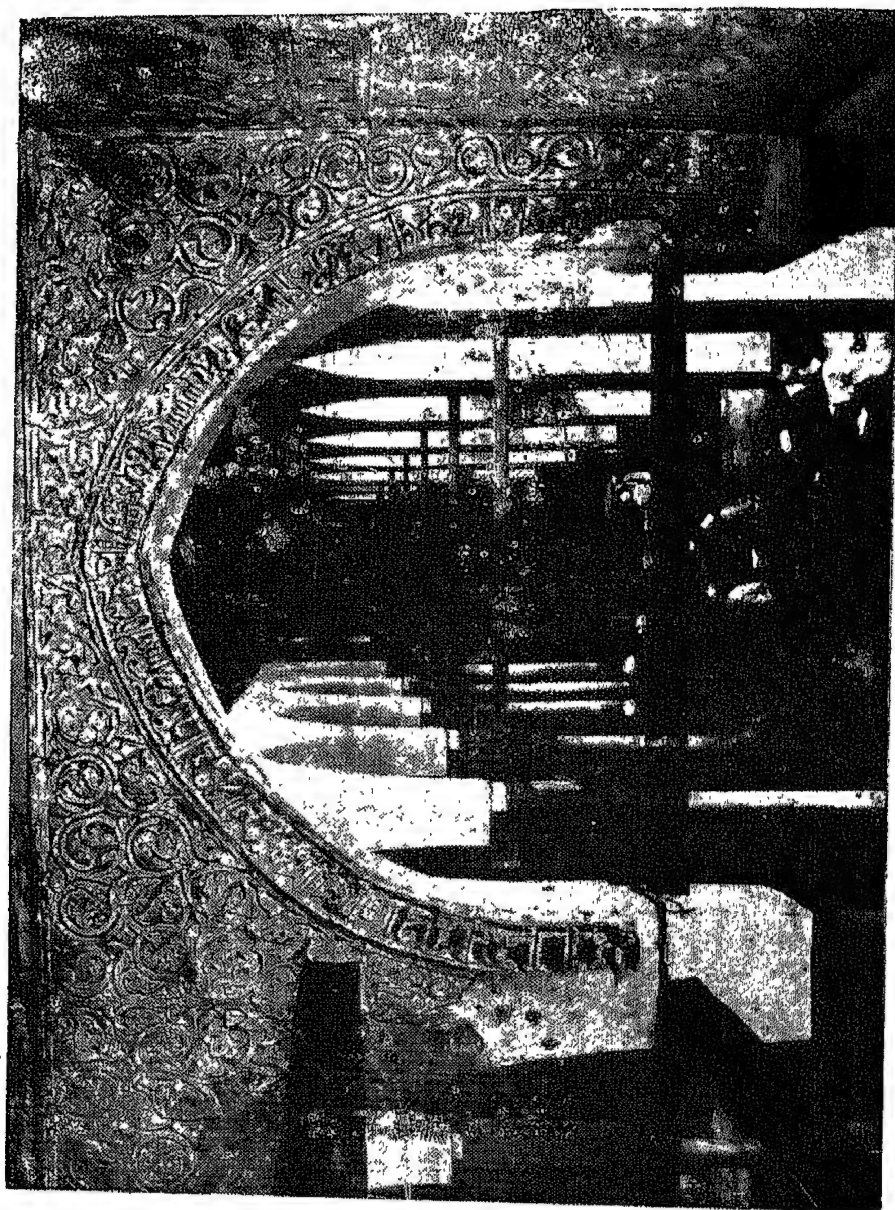
ووجه الفاطميون في عهد العزيز بالله اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي ، وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السننيين تدريجاً .

وبنى العزيز كثيراً في المنشآت التي ندل على وفرة ثروة مصر في عهده .
القصر الغربي وكان يقع غربى القصر الشرقى الذى بناه جوهر للخليفة ا.
شرقى مدينة القاهرة فى المكان الذى يقع فيه الآن خان الخليلى ومسجد الح.
تقريباً . وكان القصر الغربى الذى بناه العزيز أصغر من القصر الشرقى ، و
أطلق عليه القصر الغربى الصغير تمييزاً له عن قصر المعز وكان يقع مكان
النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح اعرض
أطلق عليه اسم « بين القصرين » .

وابتنى العزيز قصوراً أخرى فى عين شمس كما بنى فى عهده قصر البحر الـ
يقول ابن خـلـكان أنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب واهتم
المساجد كمسجد الحاكم الذى أسسه سنة ٣٧٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأنتمه
الحاكم ونسبه لإبيه . وأقام العزيز فى جامع عمرو منبراً كان آية من آيات الفـ
كذلك أنه أثنائها فخماً وزينه بالاستور الحريرية المزركشة بالذهب وكان
كلها من رسم ولون واحد .

وكان الخليفة العزيز أول من حوّل الأزهر إلى جامعة وجعلها تحت
إشراف وزيره يعقوب بن كلس ونقل إليها الكثير من الكتب والمصاحف
وأجرى على الأساتذة العطايا والصلوات فكان يخلع النفيسة فى الأعياد
ويحلمهم على البغال اعترافاً بما لمركزهم العلمى من أهمية وتقدير . وسرعان
التحق بالجامعة الأزهرية مشاهير العلماء فى الفقه الإسلامى واللغة والنحو
والمنطق والرياضة والطب وغيرها .

ومن أظهر صفات العزيز ميله إلى الأبهة وخبرته بالجواهر والغرام بالصـ
وخاصة صيد السباع ، كما كان ذكياً أديباً مستنيراً ، يجيد عدة لغات ، كريماً
محباً للعفو ، يعطف على النصارى واليهود . ومرض العزيز فى بلبس فى شـ
رجب سنة ٣٧٦ هـ وكان فى طريقه إلى الشام . ولما اشتدت عليه وطـ
المرض ، عهد إلى ابنه المنصور الذى تلقب بعده بالحاكم بأمر الله . ودفـ



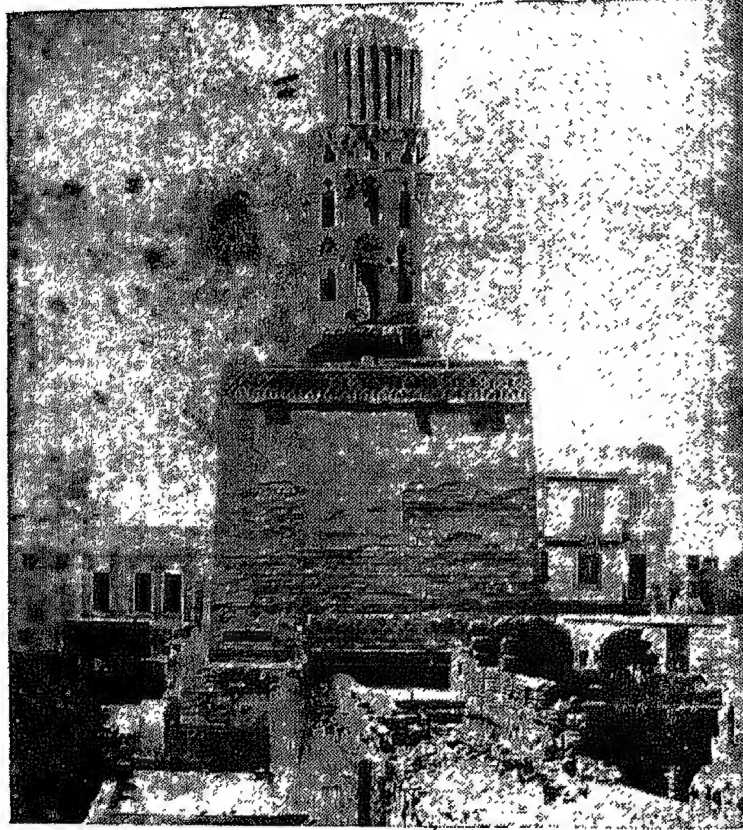
بعض عقود الجامع الأزهر - ومي من عهد إنشائه

العزب مع أبيه المعز في إحدى حجرات القصر الشرقى الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة .

ولى الحاكم الخلافة (٣٧٦ - ٤١١ هـ) بعد وفاة أبيه وكان إذ ذاك حدثاً فى الحادية عشرة من عمره فقام بأمر تربيته مربييه برجوان . وحياة الحاكم متناقضة متضاربة حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة وسماء الأستاذ مرجوليوث Margoliouth ، الحاكم المجنون ، The Mad Hakem ، وقال عنه المقرئى ، إنه كان يعتريه جناب فى دماغه ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله لانعزال وأحلامه وسياسته لا تؤل ، . من ذلك أنه أصدر سنة ٣٩٥ هـ مرسوماً بحرم بيع الملوخية لأنه أثر عن معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن استعمال الجرجير لأن عائشة كانت تأكله ، ونهى أيضاً عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يعطروه ورائق كتابية بعدم زرع الملوخية والقرع والجرجير لأن أبى بكر وهائشة ومعاوية كانوا يحبون أكلها ثم نهى عن بيع الفقاع وهو نوع من الخمر وشدد فى ذلك لأن علياً كان يكرهها . وقد أساءت هذه الأوامر إلى السذجين الذين كانوا يكونون السراد الأعظم من المصريين .

وادعى الحاكم تجسم الإله فى شخصه ونسب إليه أنصاره بعض الصفات التى لا يتصف بها إلا الله حتى اعتقد البعض أن بيده الحياة والموت ، فكان إذا بدا للناس فى الطرقات سجدوا له !

وذكر المؤرخ ابن زولاق أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من الفسقاء يندسسون فى دور بعض الناس لكشف ما يحدث فى هذه الدور وتقديم تقارير عن ذلك فى اليوم التالى إلى الخليفة الذى كان يستدعى هؤلاء ويخبرهم بما حدث فى بيوتهم . وكان نتيجة هذا أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم بالغيب .



منارة جامع الحاكم

وظهر تناقض الحاكم جلياً : حين حرم على الناس الخروج ليلاً من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ومنع النساء من الخروج ومن الظهور غير متنقيات والا يقبعن الجنايز أو يظهرن للناس في حالة منافية للأداب والحشمة وحرم عليهن الظهور في أعلى المنازل ودخول الحمامات العامة ومنع صانعي الأحذية من أن يعملوا أحذية خاصة بهن ، وظل النساء في بيوتهن سبع سنين حتى ولي ابنه الظاهر .

ولكن رغم ذلك فإن الحاكم قد قام ببعض أعمال نافعة ، من ذلك أنه أتم بناء جامع الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز وزاد في بناء الجامع الأزهر . ومات الحاكم سنة ٤١١ هـ مقتولاً وقيل إن أخته ست الملك كان لها يد في قتله .

وجاء بعده ابنه الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ) وتمتع المصريون في عهده بالسلام والطمأنينة بعد عهد الاضطهاد والفرس الذين اتصف بهما عهد أبيه الحاكم وكان الظاهر رجلاً عاقلاً عادلاً حليماً دمث الأخلاق فقد ألغى القوانين التي كان قد أصدرها أبوه .

وجاء بعد الظاهر ابنه المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) وقد حكم مصر والبلاد التابعة لها ستين سنة ، وظهرت مصر في أوائل عهده بمظهر القوة والعظمة . وفي عهده زار مصر ناصري خسرو الشاعر الفارسي فوصفها في صفر سنة ٤٣٩ هـ وأقام فيها إلى ذى الحجة سنة ٤٤١ هـ ، وكانت مصر حين زارها هذا الرحالة في عصر المستنصر في مجبوحة من العيش وكان الخليفة محبوباً من الشعب ولم يكن أحد يخشى سلباً أو نهباً وكان تجار الجواهر والسيارف لا يخفون بإغلاق حوانيتهم .

ولسكن بعد ذلك عاودت مصر المهائب وقد خفف من وقعها الوزير اليازورى الذى قبض على زمام الأمور تسع سنوات وعالج خطر المجاعة بوضع يده على مخازن الغلال ، وبعد وفاة هذا الوزير عادت الفوضى إلى مصر . وكانت السلطة إذ ذاك بيد الجنود التركية فانتهزوا تلك الفرصة ونهبوا المدينة وأصبح بيت المال خلوا من المال المطلوب لإرضاء هؤلاء الجنود فلجأوا إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة . وفى سبيل ذلك أتلفوا قصور الخلفاء الجميلة وبددوا المجموعات الفنية التى لاتقوم ، والأحجار الكريمة والمجوهرات ، وأغاروا على المسكنات المنقطة النظير .

وقد شل الحركة الزراعية والتجارية فى الديار المصرية ، ذلك الرعب الذى ألقته الجنود السودانية المنبثة فى جميع أنحاء البلاد . ولم يكن هناك ما يخفف وطأة انخفاض النيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى للفصل الجديد فشهرت مدينة القاهرة ومدينة القسطنطين بندرة الأقوات شعوراً قاسياً ، وبدأ ما عرف فى تاريخ الفاطميين باسم «الشدة العظمى» ، وفيها بلغ ثمن الرغيف ١٥ دينارا وكانت المنازل تباع بربع من الدقيق وعرضت الجواهر الثمينة نظير شيء من الطعام فلم يوجد من يشتريها ويبيع الخيل والحير والكلاب والقطط بأثمان هائلة ثم ندر وجودها وقلت دواب اسطبل الخليفة وأصبح الناس يخطفون بعضهم بعضاً وبيع لحم الإنسان عند الجزارين وأجرت بنت أحد الفقهاء رغيفين على الخليفة كل يوم حتى رأى المستنصر نفسه فى إحدى حجراته جالسا على حصير بالية لا يساقبها .

وانتهت أيام الشدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود التركية ، وتوفى خلال سنة ٥٤٦٥ هـ ، وتقلد بدر الجمالى الوزارة . وكان أرمى الأصل ، يعرف فيه المستنصر الهمة والبسالة وحسن الإدارة ، فاستنجد به الخليفة ليقضى على العناصر التركية المتنافرة فجاء إلى القاهرة وقبض على هذه العناصر بيد من حديد ووضع حداً للفوضى والجرائم وأعاد عهد سيطرة القانون ثم

تفرغ لإصلاح ما أفسده الأتراك : فخصن المدينة بأن أحاطها بالسور الذي يعرف باسم سور بدر الجمالى وأصلح أبواب القاهرة وبنى جامع الجيوشى وتلقب باسم أمير الجيوش . ومات المستنصر وبدر الجمالى سنة ٤٨٧ هـ ، أى فى سنة واحدة .

٢ - خلفاء العصر الفاطمى الثانى (٤٨٧ - ٥٦٧ هـ) :

بعد المستنصر ، جاء الخليفة المستعلى (٤٨٧ - ٤٩٥ هـ) ، ولم يقع فى أيامه ما يستحق الذكر ، ولم يكن له من الأمر شئ كثير أو قليل ، لأن السلطة والنفوذ فى عهد خلفاء العصر الفاطمى الثانى أصبحتا فى يد الوزراء ، وصارت تلك الظاهرة قاعدة الحكم ، منذ أن بدأت وزارة الجمالى : فكان المستعلى مع وزيره الأفاضل بن بدر الجمالى ، مسلوب السلطة ، كما كان المستنصر مع أبيه بدر .

وبعد المستعلى جاء الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ) . وقبض على ناصية الحكم فى عهده الوزير الأفاضل بن بدر الجمالى وتمسك الأمر من بناء قصر الهودج فى جريرة الروضة لزوجته البدوية ، ومن إنشاء جامع الأقمر . وتوفى عام ٥٢٤ هـ وخلفه الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) الذى كان هو والخليفة الأمر مسلوبي السلطة فى عهد ذلك الوزير وفى عهد ابنه أبى على بن الأفاضل .

وبذلك فإنه فى ذلك العهد الأخير من أيام الفاطميين ، أصبح الوزير رب السيف والقلم بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه فضف نفوذ الخلفاء ضعفا واضحا بحيث أصبحوا طوال ذلك العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استفحل قوتهم وتضخم ثروتهم . ولا شك أن الخلفاء قد شعروا بشئ كثير من المضايقة لسلب السلطة منهم . وبعد مقتل لوزير الأفاضل فى عهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) تولى الوزارة أبو على أحمد بن الأفاضل بن بدر الجمالى فمنع الخليفة من النظر فى أمور الدولة ، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه ، ثم استولى على ما فى القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة فى



جامع الأقر - الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي

الخطبة وذكر اسمه بدلا منه وتلقب بألقاب منها : ناصر إمام الحق ، وهادى القضاة إلى اتباع شرع الحق ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتى السيف والقلم . وفى هذا منتهى الدلالة على مبلغ سطوة الوزراء وضعف الخلفاء .

وفى عهد الحافظ الظافر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ — ٥٥٥ هـ) ثم جاء بعدهما العاضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء الفاطميين . وكانت مصر فى عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة فى عهد انحلال ، انتهى بسقوط هذه الدولة .

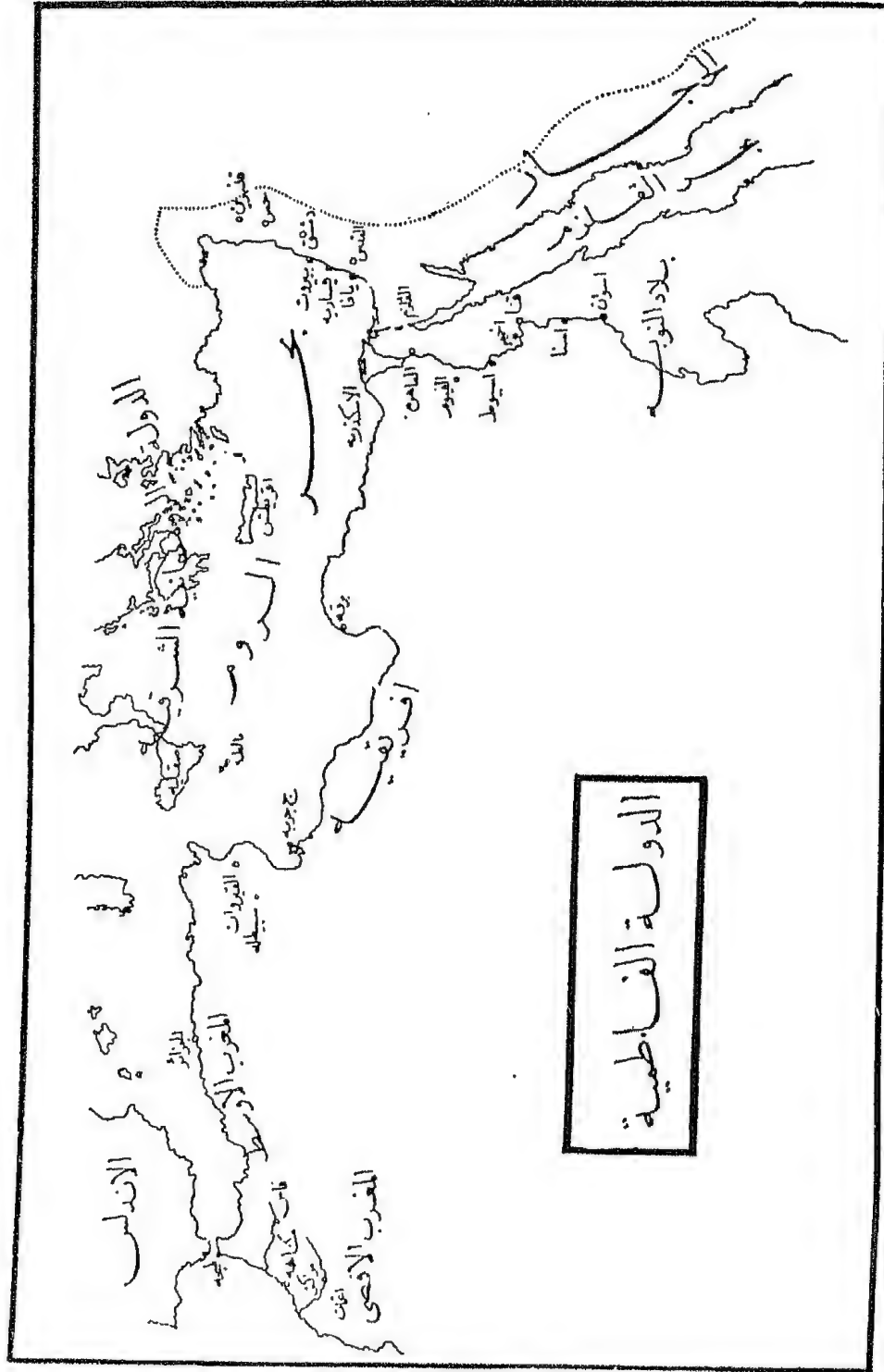
٣ — نفوذى سلطان الفاطميين :

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الأقطار التى أصبحت تحت سيطرة الفاطميين عن سلطانهم ، أن يقتبع كيف تأسست الدولة الفاطمية فى المغرب وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق وتحولت إلى إمبراطورية :

١ — استولى أبو عبد الله الشيعى داعى دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت تشمل المنطقة المعروفة اليوم باسم تونس ، ثم مد عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين نفوذه على بلاد المغرب حتى مدينة فاس فى مراکش ، كما اعترف بسلطانه حاكم صقلية ، وبعث عبيد الله المهدي حملتين لغزو مصر ، وكان من المحتمل أن يستولى عليها لولا قيام أهالى بلاد المغرب بالثورات فى وجهه طوال مدة حكمه .

٢ — وفى عهد المعز ، انتشر سلطان الفاطميين على شمال إفريقية ، بفضل مهارة جوهر الصقلى وزيرى بن مناد الصنهاجى . وفى سنة ٣٥٨ هـ فتح جوهر مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير مكة للمعز الفاطمى على منابر بلاده .

٣ — وفى عهد العزيز الفاطمى ، امتد نفوذ الفاطميين على جزيرة صقلية



في البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره الخليفة العزيز والقائد جوهري من المهاراة الحربية .

٤ — وفي الشطر الأول من خلافة المستنصر ، اعترف الصليحي الشيعي الذي أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بسلطان المستنصر في اليمن حول سنة ٤٥٥ هـ . وفي عهد المستنصر أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحو من سنة على يد البساسيري .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية في عهد الخلفاء الفاطميين . ولكن منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمي الذي اعتلى الخلافة منذ عام ٤١١ هـ ، بدأت الدولة الفاطمية في الانكماش .

١ — ففي بلاد الشام : خرج صالح بن مرداس الكلبي على الخليفة الظاهر واتجه إلى حلب وظل يحاصرها إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليها ، وكذلك تغلب ابن المفرج البدوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره في اضمحلال نفوذ الفاطميين في هذه البلاد .

٢ — وفي الحجاز : فقد حدث في عهد الظاهر أيضاً ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات ، وقال : إلى متى يعبد الحجر ! ولا محمد ولا عليّ يقدران على منعي عما أفعله ، إلى أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المكيون ناروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا ما معهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن ساءت العلاقة بين المصريين والحجازيين ، وظلت الفتنة مشتعلة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ويعرف بأبي الفتوح حسن إخمادها .

٣ — وفي غزنة شمال غرب الهند : كان يمين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غزنة قد عظم أمره ، فكتب إليه الظاهر كتاباً يدعو فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . ولكن ابن سبكتكين لم يعجب بالخليفة الظاهر .

ولم يكبد يتولى الخلافة في مصر ، الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، الذي
تولى الخلافة عام ٤٢٧ هـ ، حتى تقاصت الإمبراطورية الفاطمية وانكشبت إلى
أضيق حدودها :

١ - فنار أهل إفريقية (٤٤٣ هـ) ضد الحكم الفاطمي وأظهروا استيائهم
من عقائد المذهب الشيعي واعترفوا بسلطان العباسيين ، ثم تسكونت في بلاد
المغرب دول إسلامية مستقلة .

٢ - استقل روجر الزمندی بصقلية ، بعد أن استولى عليها من الفاطميين
(٤١٣ هـ) . ورحل عنها العلماء العرب وخضع أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ - قطعت الخطبة للمستنصر في بلاد اليمن ، على أثر وفاة الصليحي أمير
اليمن ، الذي كان قد أقام الخطبة للفاطميين .

٤ - قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطبة للمستنصر (٤٦٢ هـ) على أثر
انقطاع الأموال التي كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية
من الأوبئة والمجاعات التي مزقت شملها كل ممزق ، وخطبا للخليفة القائم بأمر
الله العباسي .

٥ - تمكنت جيوش العباسيين التي أرسلها ملك شاه الساجوقي إلى الشام
من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق (٤٦٧ هـ) وقطع الخطبة عن
المستنصر وإحلال الخليفة العباسي في الخطبة مكانه .

٦ - لم يستمر إشراف الخليفة العباسي على شمال إفريقية ، بعد ثورة أهالي
تلك الجهات ضد حكم الفاطميين واعترافهم بسلطان العباسيين ، فإن الفرنجة
بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية
الشمالي ، فاستولوا على مدينة المهدية العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد

المغرب ، وظل الفرنجة بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن بن علي الذي استطاع (٥٤٠ هـ) أن يحشد جيشاً كبيراً غزا به بلاد شمال إفريقية فاستولى على مراکش والجزائر ثم على تونس ، وتابع الزحف شرقاً حتى حدود مصر الغربية وضم إلى سيطرته طرابلس وبرقة . وبذلك تم لعبد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا .

٧ - استقل نور الدين محمود بن زنكي بحلب ودمشق ، ثم احتل الصليبيون المدن الساحلية في فلسطين وسوريا . وما لبثت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية أن أصبحت محل النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين عقب اشتداد النزاع على كرسى الوزارة في العصر الفاطمي الثاني ، وظهرت الجيوش النورية والصليبية على أرض مصر . وكان من أثر الحملات النورية على مصر بقيادة شيركوه ، أن أسندت الوزارة في مصر في عصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين إلى شيركوه . وبوفاة شيركوه بعد شهرين من وصوله إلى الوزارة ، أسندت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذي أعاد إلى الأذهان سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ومحمد الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية ، إذ استطاع صلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية التي استقلت بمصر مع التبعية الاسمية للخلافة العباسية . ولم تعد مصر بذلك مقر خلافة بل أصبحت دار سلطنة .

٤ - سقوط الفاطميين :

ويرجع سقوط الفاطميين إلى أسباب عدة ، من أهمها : أن الخلفاء الفاطميين لم يتركوا البساطة التي كانت تمتاز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم في شمال إفريقية انغمسوا في الترف والبذخ في قصورهم الجميلة في القاهرة وجعلوا إدارة دولتهم في يد مواليتهم من البربر . فكان من أثر هذه السياسة أن اغتصب

الوزراء تدريجاً تفوز الخلفاء حتى أصبحوا يلقبون بلقب ملك بينما كان سادتهم الخلفاء منزوين في قصورهم . وبعد أن كان نفوذ الفاطميين يشمل في الشطر الأول من حكمهم شمال إفريقيا والشام وجزيرة رودس وذكرت اسماء الخلفاء الفاطميين في الخطبة في الجوامع ما بين المحيط الأطلنقى والبحر الأحمر وفي اليمن والحجاز والموصل .

رغم هذا ، فإن قوة الفاطميين ابتدأت في الانحلال وذهبت أسعد ساعات الخلافة الفاطمية ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة في اختيار الخلفاء الأكفاء ومبايعة الأطفال بالخلافة ليسهل على الوزراء والحجاب الأفراد بالسلطة . لذلك فإنه في سنة ٤٤٣ هـ رفض أهالي شمال إفريقيا عقائد المذهب الشيعي رفضاً نهائياً . وانتهى الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب سنة ٥٧٣ هـ ، وكان العهد المظلم الذي أعقب وفاة الوزير اليازوري قبل ذلك . كذلك قامت الحروب العنصرية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين وإن كان تقلد بدر الجمالي للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكري .

وإن البحث الدقيق في أسباب سقوط الدولة الفاطمية يدلنا على أن السبب الأساسي يرجع غالباً إلى الحروب الصليبية . فإن تلك الحروب قد عجلت بزوال دولتهم الفتية لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين في الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والخيولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب دمشق والصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد وأخذ كل منهما يعمل على امتلاكها .

وقد ظهرت إذ ذاك عظمة صلاح الدين ، الذي كان نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق قد أرسله إلى مصر مع عمه اسد الدين شيركوه على رأس جيش لقتال الصليبيين وطردهم من مصر . ولما تم له ذلك عين صلاح الدين وزيراً بعد وفاة أسد الدين شيركوه وخصص جهوده كلها لطرد الصليبيين من بقية البلاد

التي فتحوها . ثم عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه في مصر فتمكن بحسن سياسته أن يكتسب ثقة الأهلين ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وظل يعمل على إضعاف نفوذ الخليفة العاضد الفاطمي - حتى جعله سجين قصره ، فأنازل ذلك سخط أهل القصر وأتباع الخليفة وجنده من السودان ودبروا المؤامرات للقضاء عليه . واسكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وأمر بمراقبة زعيمها ، وتمكن من القبض عليه وقتله كما قتل كثيراً من السودانيين . فثار خمسون ألفاً لأخذ بثأر ذلك الزعيم وكان يسمى نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في المسكان المعروف باسم : بن القصرين ، وأحرق في هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع ، ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين فمروا إلى الجيزة ومنها ذهبوا إلى الصعيد ، واستمروا في ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة ، وبعد أن تم له النصر عليهم طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه وأقاربه فلم يلبى طلبه . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الفرنجة في دمياط ، أن تعلق به المصريون على اختلاف نحلهم من شيعيين وسنيين ، فانفقوا معه على محاربة أعدائهم من الفرنجة :

كذلك استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين من حسن التفاهم بينه وبين المصريين حتى استطاع أن يسند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلعين في المذهب السني ، بل لقد جرى في سياسته إلى أبعد من ذلك وهو التمسيد لقطع الخطبة للخليفة الفاطمي . وانضوى تحت لواء صلاح الدين كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، كما استطاع صلاح الدين أن يجمع العناصر التي لم يثق بها في جيشه . ومن الطبيعي أن يرغب نور الدين وهو من خلافة السنة في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي وهو مل ينطوي تحته إرالة الدولة الفاطمية .

وقد علم صلاح الدين برغبة نور الدين ، ولكنه تردد في تنفيذ هذه الرغبة لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالي مصر . ولكن نور الدين تفهّد في الطلب .

وكان الخليفة العاضد مريضاً في ذلك الوقت ، فعقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في مسألة ذكر اسم الخليفة العباسي بدل اسم الخليفة الفاطمي فوافقهم بعضهم ، واخذوا على عاتقهم تنصيبه ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . وكان في هذا المجلس رجل فارسي اسمه الأمير اعترّم أن يتولى بنفسه هذا الأمر وصعد في يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسي المستضيء فلم يحتاج أحد على ذلك وأمر صلاح الدين في الجمعة التالية بإقامة الخطبة للخليفة العباسي .

وهكذا تم ذلك النفيير من غير أن يلقى مقاومة ، ولم يخبر الخليفة العاضد بذلك . وكان مريضاً ، وقال أعضاء أسرته : إن عوفي فهو يعلم ، وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بهذه الحادثة قبل موته .

وتوفي الخليفة العاضد في ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ من دون أن يعلم بهذا التغيير ، فجلس صلاح الدين للعزاء واستولى على القصر وما فيه من كنوز وطرائف وأسكن أولاد العاضد وأعمامه في جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد أن حكمت مصر عصوراً طويلاً (٣٥٨ هـ — ٥٦٧ هـ) وكان عصرها عصر يسر ورخاء وتسامح وتدين وثقافة ، وذلك لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الخلافة الفاطمية الشيعية على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي بعد أن قطعت الخطبة له في مصر وفي سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر في قرنين . إن هذا كله يمكن تسميته بانتصار السنة على الشيعة .

تقدير الفاطميين :

مهما قيل في الدولة الفاطمية ، فإن الباحث في تاريخ هذه الدولة ، لا يسهه إلا أن يذكر ما أدته لمصر من جليل الخدمات وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن ، تشهد بعصرها بالقوة والعظمة ولخلفائها الأول بالنفوذ والسلطان .

١ — انتقل الفاطميون إلى مصر ، فأصبحت مصر مقر خلافة لأول مرة في تاريخها ، بعد أن كانت مقر إمارة يحكمها ولاية .

٢ — تمتعت مصر الفاطمية ، بجميع مظاهر الاستقلال ، وصارت مستقلة استقلالاً تاماً .

٣ — امتدت دولة الفاطميين من المغرب ومصر ، إلى الشام والحجاز ، على حساب العباسيين ، واعترف بسلطان الفاطميين في شمال إفريقيا ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وبسطوا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ما وراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد عاصمة العباسيين .

٤ — بنى الفاطميون مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية .

٥ — نشط الفاطميون في بناء المساجد لنشر الدعوة الفاطمية : فبنوا الجامع الأزهر الذي حوله الخليفة العزيز إلى جامعة تعرف باسم الجامعة الأزهرية .

٦ — أسس الفاطميون دور المكتب لتشجيع البحوث في العقائد الإسماعيلية فأسسوا مكتبة القصر ودار الحكمة ودار العلم .

٧ — ازدهرت التجارة في عصر الفاطميين ، إذ اتصلوا ببلاد الهند والصين وبنجوني أوربا ، كما كان للفاطميين شهرة عالمية في صناعة المنسوجات وصناعة المعادن وصناعة التماثيل والنقش على الخشب .

مهر الإسلاميه بمهر سقوط الفاطميين :

تأسست على أثر سقوط الفاطميين ، دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين الأيوبي من أبرز شخصيات العالم الإسلامى . وتميز عهد الأيوبيين بالعمل الدائم فى القضاء على الصليبيين ، ولكن عجل سقوط الأيوبيين قيام النزاع على عرش السلطنة مما أدى فى النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية التى حكمت مصر على نسق الدولتين الطولونية والإخشيدية . فقد كانت تحكم إسمياً من بغداد مقر الخلافة العباسية ، ولعب مؤسسها صلاح الدين نفس الدور الذى لعبه ابن طولون والإخشيد . واعتبرت مهر منذ قيام الدولة الأيوبية ، سلطنة يحكمها سلاطين بعد أن كانت دار إمارة ثم دار خلافة .

ويبدأ تاريخ دولة المماليك فى مصر عقب سقوط الأيوبيين . وفى عهدها تمتعت مصر بكافة مظاهر الاستقلال ، وزال عهد التبعية الفعلية والإسمية عن مصر ، وأعادت إلى الأذهان عهد الفاطميين ، وأنحكام المماليك لقبوا بلقب سلاطين وليس بلقب خلفاء كخلفاء الفاطميين ، وصارت مهر فى عهدهم مركز الخلافة بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد ، وصارت مهر يحكمها فى عهد المماليك : سلطان له الإشراف السياسى على شئون الدولة ، وخليفة له الإشراف الدينى ومنه يستمد سلطان المماليك سلطته الشرعية .

فترات حكم الدول التى حكمت مصر الإسلاميه :

أولاً : فترات كان يربط مهر بالخلافة ، الخطبة والجزية والسكة .

١ - عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ - ٤٠ هـ = ٦٤٠ -

٦٦١ م .

٢ - عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ - ١٣٢ هـ = ٦٦١ -

٧٥٠ م .

٣ - عهد تبعية مصر للخلفاء العباسيين ١٣٢ - ٢٥٤ هـ = ٧٥٠ - ٨٦٨ م و ٢٩٢ - ٣٢٣ هـ = ٩٠٥ - ٩٤٣ م .

ثانياً : فترات كانت مصر مستقلة في الحكم ، مع التبعية لغيرها في الاسم فقط :

- ١ - زمن الطولونيين ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م .
 - ٢ - زمن الإخشيديين ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ = ٩٣٧ - ٩٦٩ م .
 - ٣ - زمن الأيوبيين ٥٦٧ - ٦٤٨ هـ = ١١٧١ - ١٢٥٠ م .
- ثالثاً : فترات كانت فيها مصر مستقلة استقلالاً تاماً :
- ١ - زمن الفاطميين ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م .
 - ٢ - زمن المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م .

مصادر الكتاب^(١)

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا : مصادر عربية مخطوطة

- ابن حجر المسقلاني (٨٥٣ هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن علي .
« رفع الإصر^(٢) عن قضاة مصر » .
(مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢١١٥) .
- العيني : (٨٨٥ هـ = ١٤٥١ م) بدر الدر الدين محمود .
« عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ٢٤ جزءاً في ٦٠ مجلداً .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ١٥٧٤ تاريخ .
- العمري : (٧٤٢ هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .
« مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .
- أبو المحاسن : (٨٧٤ هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين سيف بن تفرى بردى .
« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع .
مخطوط بدار بدار السكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .
- المقرئ : (٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن علي .
« كتاب السلوك في معرفة دول الملوك » الجزء الثالث .
مخطوط بدار السكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

(١) السنوات المثبتة أمام اسم كل مؤلف ، هي سنة وفاته مبينة بالهجرى والميلادى .

(٢) الإصر : الذنب .

- النويرى^(١) : (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
« نهاية الأرب في فنون الأدب » ، ٣٢ جزءا .
صور شمسية بدار المكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف عامة ، مأخوذة من
النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .
ثانيا : مصادر عربية مطبوعة
أحمد عيسى : تاريخ الجارستانات في الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٩ م)
الإدريسى^(٢) : (٦٤٩ هـ = ١١٨٨ م) .
« كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصار والأقطار والبلدان » .
ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٧ م) علي بن أحمد بن أبي الكرم .
الكامل في التاريخ ، ١٢ جزءا (بولاق سنة ٢٩٤ هـ)
ابن الإخوة : « معالم القربة في أحكام الحسبة » (طبعة روين لينى Rubien
Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .
ابن إياس : (٩٣٠ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .
« كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم « بدائع الزهور » ، ٣ أجزاء . (بولاق
١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .
ابن بطوطة : (٧٧٩ هـ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .
« تحفة النظار في غرائب الأوصار ومعائب الأسفار » جزاءن (القاهرة
١٣٥٧ هـ = ١٩٣٨ م) ترجمة إلى الفرنسية ديفرييري Defremery
وسانجيتى Sanguinetti (باريس ١٣٥٣ - ١٣٥٨ هـ = ١٨٦٩ -
١٨٧٩ م) .

(١) اشترك النويرى في حروب المماليك اشتراكا فعليا ، ووصف كثيرا من
وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التي يثبت بها وجهة نظره فيما أدلى به من آراء .
(٢) جاءت شهرة الإدريسي لاعتن طريق تأليفه هذا الكتاب ، بل لرسمه خريطة
للعالم في العصر الذي عاش فيه .

- البكرى^(١) : (٤٨٧ هـ = ١٠٩٧ م) .
« كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » .
البيروني^(٢) : (٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) .
« الآثار الباقية عن القرون الخالية » .
ابن تيمية : « الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية » جزء واحد
ابن جبير : (١٦٤ هـ = ١٢٨٧ م)
« رحلة ابن جبير » (طبع في لندن سنة ١٨٥٢ م) .
جورجي زيدان : « تاريخ التمدن الإسلامي » خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢)
حسن إبراهيم حسن : « عمرو بن العاص » (القاهرة ١٩٢٣ م) .
« الفاطميون في مصر » عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م) .
« تاريخ الإسلام السياسي » — ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦) .
« انتشار الإسلام بين المغول » (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية ،
مايو سنة ١٩٣٣) .
« عبيد الله الممدى » (القاهرة ١٩٤٧)
« المعز لدين الله » (القاهرة ١٩٤٧)
ابن خلدون : (٨٠٨ هـ = ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) . عبد الرحمن محمد .
« مقدمة ابن خلدون » (بيروت ١٩٠٠ م) .
« المعبر وديوان المبتدأ والخبر » ، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م) .
ابن خلدون : (٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) . شمس الدين أبو العباس أحمد

(١) ينسب البكرى لابن بكر الصديق ، وبكتابه معلومات جلية الشأن عن شمال
إفريقية وسكانها .
(٢) البيروني من سكان برون Berun أحد أحياء جنوة ، وكان يطلق على الحي
والبلدة اسم خوارزم .

ابن إبراهيم بن أبي بكر الشافعي .
« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » جزءان .
(بولاق ١٢٨٣ هـ ، والمطبعة النجفية بمصر ١٢١٠ هـ) .
ابن دقماق : (٧٠٩ هـ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصري .
« الانتصار بواسطة عقد الأمصار » جزء ٤ ، القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ =
١٨٠٣ م) نشره المستشرق فولرز Ed. Vollers
راشد البرواي : الحالة الاقتصادية في عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨ هـ) « كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى
الفرنسية مصيوق إتيين كترمير E. Quatremère . وانتهى رشيد الدين من
تأليفه سنة ٧٠١ هـ (١٠٣١ م) .
زكي محمد حسن :

« الفن الإسلامي في مصر » ، (القاهرة ١٩٣٥ م) .
« مصر والحضارة الإسلامية » الرسالة الخامسة عشر من سلسلة الثقافة
المسكزية التي تصدرها إدارة الشئون العامة في وزارة الحربية .
« الرحالة المسلمون في العصور الوسطى » ، (القاهرة ١٩٤٥) .
ابن زولاق : (٣٧٨ هـ = ٩٩٧ م) .
« العميون الدعج في حلى دولة بني طنج ، ^(١) »
السبكي : (٧٧١ هـ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب .
« معيد النعم ومبيد الفقر » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولهم موهر من
David W Myhrman المدرس بكلية أبسلة الملوكانية .
« طبقات الشافعية الكبرى » ج ٥ ، ٦ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، سكنه أمدنا في الوقت نفسه .
معلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٣٨٦ هـ .

سعيد بن البطريق^(١) : (٣٢٨ هـ = ٩٤٠ م) .
« التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » .
السيوطي : (٩١١ هـ = ١٦٠٥ م) . جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
« حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » (القاهرة سنة ١٨٨١ م)
ترجمه إلى الإنجليزية الميجر هـ . س . هرت (كاسكتا سنة ١٨٨١ م)
« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القاطنين بأمر الآلة » . إدارة المطبعة الميصرية
سنة ١٣٥١ هـ .

ابن شاكر : (٧٦٤ هـ = ١٣٦٣ م فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي
« فوات الوفيات » (بولاق ١٢٩٩ م)
أبو شامة : (٦٦٥ هـ = ١٢٦٧ - ١٢٥٨ م) . عبد الرحمن بن اسماعيل بن
ابراهيم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبي شامة شافعي من أهل دمشق .
« كتاب الروضتين في أخبار الدولتين » ،
Recueil des Historiens Croisades. Historiens Orientaux. t. VI.
وهناك طبعة أخرى في مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م) .
أبو صالح الأرميني : (٦٠٥ هـ = ١٢٠٨ م) .
« تاريخ أبي صالح الأرميني ، المعروف باسم « كنائس وأديرة مصر » ،^(٢)
طبعة Evetts في أكسفورد سنة ١٨٩٥ م ، وقرن نصه العربي بترجمة
إنجليزية .

(١) كان سعيد بن البطريق معروفا باسم أوتيوخا Eutychus عند الأفرنج
وكان بطريقا للقبط ، وكتب كثيرا عن تاريخ مصر ، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية ،
إلا أن لغته يعييبها الركاكة وأتم كتابه رجل من أنطاكية يدعى يحيى بن سعيد المتوفى
سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م) .
(٢) فيه يكتب المؤلف تاريخ الكنائس والأديرة المصرية وأحياء النصارى
وتاريخ القديسين والبطاركة ، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعاتها وخراجها .

ابن طباطبا : ولد سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م وأنتم كتابه سنة ٥٧٠١ هـ ، (ولا تعرف سنة وفاته) . محمد بن علي المعروف باسم الطقطقي .

« الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ١٩١٣ م)

ابن عبد الحكم^(١) : (٢٨٦ هـ) : « كتاب فتوح مصر والمغرب » .

عبد الرحمن زكي : « القاهرة ، (١٩٤٣) .

عبد اللطيف البغدادي : (٦٢٩ هـ = ١٢٣١ م) « مختصر تاريخ مصر » .

علي ابراهيم حسن :

« جواهر الصقلي ، (القاهرة ١٩٦٣ م) .

« النظم الإسلامية » ، بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن

(القاهرة ١٩٦٢ م) .

« دراسات في تاريخ الممالك البحرية » ، (القاهرة ١٩٦٣)

« استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ المصري

الوسيط » ، (القاهرة ١٩٦٣)

« التاريخ الاسلامي العام » ، (القاهرة ١٩٦٣)

« الجيوش والبحرية في عصر المماليك » ،

الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التي تصدرها إدارة

الشئون العامة في وزارة الحربية ، (القاهرة ، مارس ١٩٤٤)

« آراء في تاريخ دولة المماليك البحرية » .

(بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد السابع ، ١٩٤٤) .

« أخطر المجاعات في مصر » ، ودعامة الفاطميين ، (بحثان في مجلة السكتاب

عدد ١ يونيو وديسمبر ١٩٤٦) .

« دراسات مصادر التاريخ الإسلامي وحياة مؤلفيها » ،

بحث بمجلة كلية الآداب بجامعة بغداد — العدد الأول — حزيران ١٩٥٩

(١) كان ابن عبد الحكم معاصراً لأحمد بن طولون، ومات بعده بست سنوات وكتابته من أقدم الكتب التي كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية .

على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ، ٣٠ جزءاً فى أربع مجلدات (بولاق ١٣٠٥ هـ) .

عمارة اليمى^(١) (٦٥٩ هـ = ١١٧٤ م)

« كتاب النسك المصرية فى اخبار الوزراء المصرية ، .

« ديوان عمارة اليمى ، .

العمرى : (٧٤٢ هـ = ١٣٤١ م) شهاب الدين احمد بن فضل الله .

« مسالك الابصار فى ممالك الامصار ، الجزء الاول .

نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكى ، (مطبعة دار الكتب المصرية

سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٤ م) .

« التعريف بالمصطلح الشريف ، (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .

عمر طوسون : « كتاب مالية مصر من عهد الفراغة إلى الآن ،

(الاسكندرية سنة ١٩٤١)

ابن أبى الفضائل ، مفضل : « النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ

ابن العميد ، .

« Texte Arabe Publiée et traduit en Francais par E. Blochet.
Palaogia Orientalis. t. Fasc. 3 Paris, III, 1930

ابن القلانسى : (٥٥٥ هـ = ١١٦٠ م) : أبو على حمزة .

« ذيل تاريخ دمشق ، (بيروت سنة ١٩٠٨ م)

القلقشندى^(٢) : (٨٢١ هـ = ١٤١٨ م) أبو العباس احمد .

« صبح الاعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٧ م) .

« ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر ، (القاهرة ١٠٩٦ م) .

(١) تنحصر أهمية عمارة فى معاصرتة للحوادث التى جرت لمصر فى أواخر أيام

الفاطمين ، فكان ~~كشاهد~~ عيان لهذه الحوادث .

(٢) ولد سنة ٨٥٦ هـ ببلدة قلقيشندة من أعمال مديرية القليوبية .

السكندى^(١): (٢٥٠ هـ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
«كتاب الولاية والقضاء» به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب «رفع الإصر
عن قضاء مصر» لابن حجر العسقلاني ، طبعة رفن جست .

E. J. Y. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R. Guest

الماوردي: (٤٥٠ هـ = ١٥٠٧ م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصري
«الأحكام السلطانية» (القاهرة ١٢٩٨ م)

أبو المحاسن (٨٧٤ هـ = ١٨٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تغري بردي
«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» ، ١٠ أجزاء

(مطبعة دار المكتب المصرية سنة ١٣٥٠ - ١٣٥٧ هـ = ١٩٣٠ - ١٩٤٠ م)
والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثاني (جزءان) - طبع جامعة

كليفلاند بياشراف William Popper

محمد محمود هرنوس. «تاريخ القضاء في الإسلام» ، القاهرة ١٣٥٢ هـ = ١٩٣٤ م
المقريزي^(٢) ٨٤٥ هـ = ١٤٤١ م ، تقي الدين أحمد بن علي

«المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» جزءان ، بولاق ١٢٧٠ هـ .
نشر مسيو جاستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، في أربعة
مجلدات في المعهد الفرنسي للعاديات الشرقية في القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ -
١٩٤٢ م)

(١) كان السكندى مصري المولد والدار ، ولما توفي سنة ٣٥٠ هـ أتم كتابه ابن زولاق
المصري الجنس المتوفى سنة ٣٨٧ هـ في خلافة الحاكم بأمر الله ووصل في كتابته إلى
سنة ٣٨٦ هـ أي قبل وفاته بسنة ، وأتى بعدهما ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ
(١٣٤٩ م) ، وأتم كتاب القضاء وسماه «رفع الإصر عن قضاء مصر» ، ونشرت هذه
المكتبة الثلاث كلها مع بعض .

(٢) ولد تقي الدين المقريزي في القاهرة سنة ٧٦٦ هـ ويكنى جده لأبيه المقريزي نسبة
إلى مقريز من خبط بعلبك بسورية .

« كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الجزء الثانى إلى سنة ٥٧٤١ . نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة

دار المكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢)

« كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة ، نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى

زيادة والدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠)

(طبعة الجمعية الزراعية - القاهرة ١٩٤٣ م) .

ابن منجب الصيرفى (٥٥٤٢ هـ) : الإشارة إلى من قال الوزارة ، (١) .

ابن ميسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .

« تاريخ مصر ، طبعة هنرى ماسيه . (القاهرة ١٩١٩) .

ياقوت : (٢٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الرومى .

« معجم البلدان ، ١٢ جزءا . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثاً — مصادر أوروبية

Allan : (j.)

The Cambridge Shorter History of India. (Camdridge, 1924).

Arnold : (T. W.)

The Caliphate. (Oxford, 1924).

Aitya (A. S.)

The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938.)

Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938.) .

Embassies and Diplomatic Correspondence between 1300 and 1330 A. D.

(١) لكتاباه قيمة خاصة فى بحث تاريخ الفاطميين ، لان ابن تقي الدين ديوان الرسائل فى عهد الخليفة الأمر الفاطمى من سنة ٤٣٥ هـ حتى ٣٥٦ هـ ، كما كان متصلاً بالبلاط الملكى اتصالاً مباشراً .

Bloch (E)

Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1908). Extrait de la
Revue de l'Orient Latin. Tomes VIII—XI)

Browne, (E. G.)

Literary History of Persia from the Earliest times until Firdawsi.
(London, 1909).

Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1265-
1502 A.B) Vol. II. (Cambridge, 1920).

Literary History of Persia. Vol. III. the Tartar Dominion
1265—1502. (Cambridge, 1923).

Budge (A. W.)

A History of Ethiopia. Nubia and Abbysinia-2 Vols. Bulletin
of the School of Oriental Studies (B. SC. G.).

(Cam. Med. Hist.) Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen. (A).

L'Empire des Sassanides. (Copenhague, 1907. Memoires de
l'Academie Royale des Sciences et des Lettres— Denmark).

Colin. (G. S.) et E. Levi-provençal.

Un Manuel Hispanique de Hisba (paris, 1931).

Demombynes. (G)

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. (paris, 1922.)

De Sacy : (S).

Bibliothèques Arabisant Francais (Le Caire) 1933.

(Mem. I. F A. Caire)

D' Hosson (Baroun).

**Histoire des Mongols dequais Techinguiz Khan jusqu' a Timour
Bey ou Temerlan**, vol. III.

Dozy (R).

**Supplément aux Dictionnaire détaille des Noms de Vêtements
Chez les Arabes** (Paris, 1845).

(Enc. Isl.) Encyclopaedia of Islam.

Devonshire (R. L.)

Rambles in Cairo, 1931.

Hassan H. 1.

Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940)

Hautecoeur (L.) et Wiet (G).

Les Mosquées du Caire. 2. vols. (Le Caire, 1923).

Heyd : (W.)

Histoire du Commerce au Moyen-Age. Vol. II.

(Leipzig. 1925).

Hitti : (P. R.)

The History of the Arabs. (London, 1940).

- (J. A) Journal Asiatique.
Howorth (Sir Henry)
History of the Mongols Part III. vol IV. (London, 1876-1888).
Kendrick. (A. F.)
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period.
(Victoria and Albert Museum)
Lane—Poolé, (S.)
The Art of the Saracens (London, 1888).
The Story of Cairo. (London, 1882)
History of Egypt in the Middle Ages (London 1900)
The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)
Lavoix (H.)
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale,
Egypt et Syrie.
Le Strange (G.)
Palestine under the Moslems.
Marcel (M J. J.)
Histoire de L'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à
L'Expédition Française. (Paris, 1848)
Mayer (L. A)
Saracenic Heraldry « Oxford, 1933 »
Mercier
La Chasse et les Sports chez Les Arabes. « Paris, 1927 »
Michel « B »
L'Organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks
d'après Qalqachandj. Le Caire, 1925.
« Extrait de bulletin de l'institut d'Egypte, T.VII. Session
1924—1925 ».
Muir « W. E. »
The Caliphate, its Rise, Decline and Fall « Oxford, 1902 ».
Quatremère « E. »
Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte 2. vols. Paris,
1837—1844 »
Toussoun : « Omar »
La Géographie de l'Egypte a l'Epoque Arabe « Mémoires de
la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII. 1. 2 parties—
Le Caire 1926—1928 »
Sanhoury. « A. A. »
Le Califat « Paris, 1926 ».
Van Berchem « Max »
Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. « Le
Caire, 1823 » Mem. I. F. A Caire.

Wiet : G.

Histoire de la Nation Egyptienne, L'Egypte Arabe, Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933.

Les Biographies du Manhal Safi. Memoires Presentés à l'institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendence dans l'Egypte Medievale, ed. de la Revue du Caire, 1942.

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome. II. Mem. de l'institut fr. d'archeologie, 1900.

كتب المؤلف

- ١ — **النظم الرسومية (الطبعة الثالثة ١٩٦٢)**
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق.
يبحث في نظام الخلافة ، والوزارة ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة الولاة ،
ودواوين الحكرمة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء .
ترجمه مولاي عليم الله خان صاحب صديقي إلى اللغة الأوردية ، لغة ،
بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .
- ٢ — **فساد اليمن في التاريخ الإسلامي (الطبعة الثانية ١٩٦٣)**
يبحث في تاريخ الفساد في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومهصر
الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .
- ٣ — **سيرة القاهرة (الطبعة الثانية ١٩٥١)**
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ترجم من الإنجليزية إلى
العربية عن Lane - Poole : The Story of Cairo
- ٤ — **جوهر الصقلي (الطبعة الثانية ١٩٦٣)**
يبحث في حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي ، والدور الذي قام به
المعز في تاريخ مصر
- ٥ — **مصر في العصور الوسطى (الطبعة الخامسة ١٩٦٣)**
من الفتح العربي إلى الفتح العثماني
يبحث في تاريخ مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . ويشمل عهد
الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر ، وعهود دول : الطولونيين ،

والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك. وذلك فيما يتعلق: بالتاريخ
السياسي ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ،
والحالة الاجتماعية .

٦ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في مميزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفي عهده ،
وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة . وألقاب
السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديرها ، والحرس السلطاني داخل
القصر وفي المراكب ، ونظام الخلافة العباسية في القاهرة ، ودواوين الحكومة
الملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكي ، والقضاء والمظالم
والحسنة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ - استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ

المصري الوسيط (الطبعة الثانية ١٩٦٣)

يبحث في طرق البحث التاريخي ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ،
ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة .

٨ - التاريخ الإسلامي العام (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)

يبحث في تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة
الأموية ، والعصر العباسي ، ونظم الحكم في الجاهلية والدولة العربية والدولة
العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي بالقاهرة

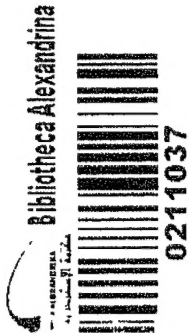
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

The History of Gawhar Al Sikilli

COMMANDER OF THE FATIMITE CALIP AL MO'IZ

By
Dr. Aly Ibrahim Hassan
Senior Inspector of Humanities,
Ministry of Education, Cairo.

PUBLISHED BY
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, ADLY STREET, CAIRO.



التمن ٣٥